البابُ الأَوَّل

اللِّسان

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأوّل

المَهْد

obeikandl.com

obeikandl.com

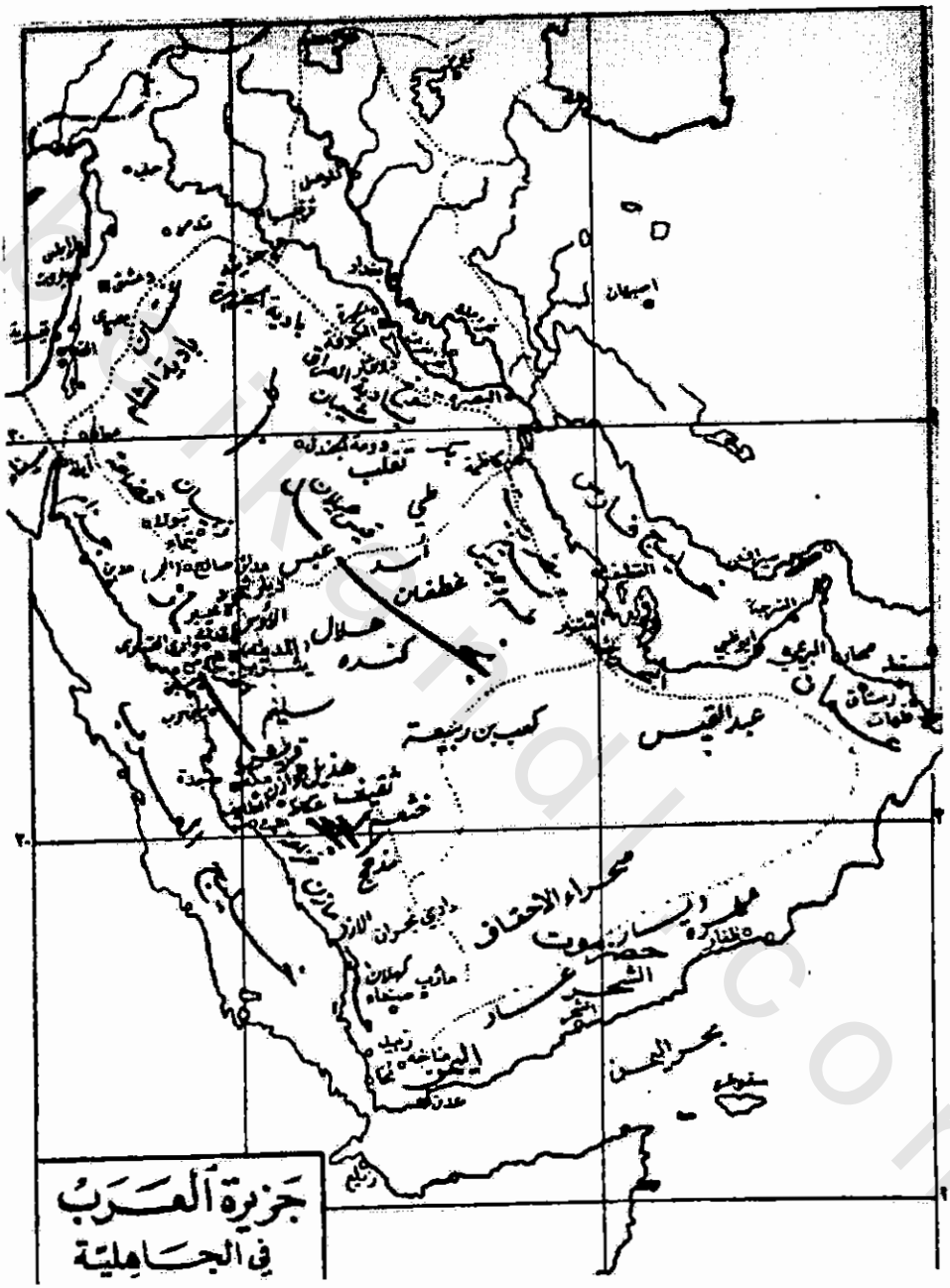
جزيرة العرب
في الجاهلية
بحر العرب
عبد القيس
كعب بن ربيعة
سليم
هذيل
ثقيف
خثعم
كندة
غطفان
أسد
طي
تغلب
بكر
عنزة
ربيعة
مضر
حمير
اليمن
حضرموت
محرة
عمان
البريمي
أبو ظبي
قطر
البحرين
الكويت
الشحر
عدن
صنعاء
مأرب
نجران
الطائف
مكة
المدينة
جدة
الرياض
الدرعية
حائل
تيماء
دومة الجندل
الحيرة
الأنبار
الموصل
بغداد
البصرة
الأحساء
الفاو
شط العرب
إصبهان
فارس
الخليج العربي
بادية الشام
دمشق
تدمر
حلب
الرقة
الفرات
دجلة
الخابور
الجزيرة
سنجار
الزاب
الأهواز
الأبلة
عبادان
عمان
مسقط
صحار
رأس الخيمة
الشارقة
دبي
الظفرة
البريمي
أبو ظبي
قطر
البحرين
الكويت
الشحر
عدن
صنعاء
مأرب
نجران
الطائف
مكة
المدينة
جدة
الرياض
الدرعية
حائل
تيماء
دومة الجندل
الحيرة
الأنبار
الموصل
بغداد
البصرة
الأحساء
الفاو
شط العرب
إصبهان
فارس
الخليج العربي
بادية الشام
دمشق
تدمر
حلب
الرقة
الفرات
دجلة
الخابور
الجزيرة
سنجار
الزاب
الأهواز
الأبلة
عبادان
عمان
مسقط
صحار
رأس الخيمة
الشارقة
دبي

obeikandl.com

المهد

الموقع :[1]

تقع شبه جزيرة العرب Arabia ، أكبر أشباه الجزر في العالم، في أقصى الجنوب الغربي من القارة الآسيوية . و يَحدّها البحر الأحمر (بحر القُلْزُم) من جهتى الغـــرب والجنـــوب الغربي ، و خليج عدن من جهة الجنوب ، وبحر العرب من جهتى الجنـــوب و الجنـــوب الشرقي ، وخليج عُمان و الخليج الفارسي (الخليج العربي) من جهة الشمال الشرقي ، و العراق والشام وخليج العقبة من جهة الشمال . و تبلغ مساحتها نحو المليون من الأميـــال المربعة أي ما يقرب من ٢،٥٩٠،٠٠٠من الكيلومترات المربعة . و يحيط بها البحر مـــن ثلاث جهات ، فتُسمّى تجَوُّزاً بجزيرة العرب ، و يفصله عن سطحها عدة سلاسل جبلية . وينحدر سطح شبه الجزيرة انحداراً خفيفاً من جبالها المتاخمة لساحل البحر الأحمر صـــوب شمالها الشرقي باتجاه أراضيها الشرقية الواطئة المتاخمة للخليج الفارسي . و تنتمي جبالهـــا الساحلية الغربية من الوجهة الجيولوجية إلى الساحل الأفريقي المتاخم للبحر الأحمر حيث وقع الصدع الأكبر (الأخدود الأفريقـــي العظـــيم East African Rift System) منـــذ نحـــو ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ سنة فانفصل القسمان اللذان كانا في الواقع إقليماً جيولوجياً واحداً . و ثمة أدلة على أن هذا الاضطراب الجيولوجي لم يَقَرّ إلى اليوم فيما يقع من زلازل بالمنطقة و فيما اكتُشف من حقول شاسعة من اللافا (اللابة)[2] Lava البركانية الـــسوداء ، و مـــن فُوّهات بركانية دَثَرَت منذ زمن .

و يتميز السطح الداخلي لشبه الجزيرة بتتابع الأقاليم الصحراوية الرملية امتداداً من صحراء النَّفود في الشمال الغربي إلى الربع الخالي في الجنوب.أما في الشمال الشرقي فإن الأراضي الساحلية الرملية الواطئـــة تحف بالخليج الفارسي . و لا تعتبر جبالها شاهقة

---

[1] Encyclopedia Britannica , ١٥th Edition , ١٩٩١, ١ : ٥٠٦-٨

[2] اللابة هى حُمَمٌ بركانية من صهير الصخر تسيل من فوهة البركان ، و يُطلق أيضاً على الصخر الصُّلب الناشئ عن تبرّد هذه الحمم (معجم الجيولوجيا – بمجمع اللغة العربية المصري – الطبعة الثانية ، ص ٢٣٥).

الارتفاع على وجه العموم،حيث يبلغ أعلاها نحو ١٢٣٣٦ قدماً (٣٧٦٠ متـــراً) فوق مستوى سطح البحر في صنعاء باليمن .

و يقع القسم الأكبر من الأراضي المترعة بالجزيرة في حدود السهل الساحلي الـــضيق الذي يفصل سطحها الصحراوي عن البحر على امتداد ثلاثـــة أضـــلاعها (الغـــربي و الجنوبي و الشرقي) ، و كذلك تتركز في ذلك السهل أهم مدنها و مراكزها التجاريـــة التي كانت عبر آلاف ثلاثة من الأعوام همزة الوصل بين جزيرة العرب و آسيا وأفريقيا

و لا شك في أن ذلك السور الجبلي المحيط بالجزيرة هو المسئول عن جفاف مُناخهـــا جفافاً بالغاً حيث يقل المنسوب الحَوْلِيُّ للمطر عن أربع بوصات أى مائة ملليمتـــر ، باستثناء بضع مناطق شرقية مما يقع تحت تأثير الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي ، و كذلك المناطق الساحلية بأقصى الغرب .

و اليمن أصلح بقاع الجزيرة للسُّكنى لأن المنسوب الحَوْلِيَّ للمطر فيها يتـــرجّح بـــين العشرين و الأربعين بوصة ، أى بين خمسمائة و ألف ملليمتر.

أما سائر أرجاء الجزيرة فإنه يرزح تحت الهجير اللافح الشنيع الحرارة الذي يبلغ ٥٤ درجة مئوية (١٢٩ فاهرنهايت) أو ما يربو عليها في الصيف ، و حتى لو انكسرت شوكته ربيعاً و شتاءً فإن الندرة الشديدة في المطر تنشر الجدب و الإمحال بقـــسوة و ضراوة لا نظير لهما.

هذا و لا يخلو هذا المُناخ الفظ الغليظ من رياح شمالية محببة إلى النفس، أو من ريـــاح شرقية لطيفة و هي التي عرفتها العرب باسم الصَّبا ، و ما إلى ذلك مما تغنت به النفس العربية الشاعرة . أما رياح السَّموم الصيفية فإنها كالمُهل تشوى الوجوه ، و هي من أبشع ما عرفت الجغرافيا من ظواهر .

و تخبرنا الجيولوجيا بأن وجه الجزيرة العربية قد كان مضيافاً بشوشاً لمن سكنوا إليه ، لا في غابر الدهر و حسب ، و إنما في حقبة زمنية غير موغلة في البعد عنا نسبياً .و إن

الأوديةَ الباقيةَ والمجارىَ المائيةَ الموسميةَ الحاليةَ لم تكنْ ذاتَ يومٍ إلا مجـــارىَ دائمـــةً ، لا ينقطعُ فيضُها على مدارِ السنة.

و تندُرُ الأشجارُ في هذه البطحاءِ اليابسةِ بطبيعةِ الأحوالِ فيما خلا بعـــضَ الأوديـــةِ و الجبالِ مما إذا ألمّ به الماءُ أنبتَ أشجارَ الطّلحِ والأثْلِ والسّدرِ والحِنّاءِ و الرُّمّانِ و التفّـــاحِ و الليمون ، كما تنبتُ بها الصّفصِفة Alfalfa التى تُستخدَمُ كعلفٍ للحيوان ، و يكـــثُرُ النخيلُ في كلّ أنحائها حيثُ كانَ التمرُ عماداً لاقتصادِ الجزيرةِ في كلّ عصورِها قبـــلَ الحِقبةِ النّفطيّةِ بالطبع .

فلا غَرْوَ أن سمّى العربيُّ المطرَ غيثاً في مكابدتِه هذه الشراسةَ الطبيعيةَ التى غلّبـــت الصّفرةَ الكالحةَ على الخُضرةِ النّضِرَةِ ، والجَدْبَ المكفهِرَّ على السُّقيا و النّماء . و يشِذُّ عن ذلك الإمحال بعضُ أعالي الجبالِ مثل إقليمِ الطائفِ حيثُ يَلطُف الهواء ، و ينعقـــدُ الثلجُ و يجمُدُ الماءُ في الشتاءِ ثم يذوبُ منحدراً في جداولَ تجودُ على الأرضِ بـــالمزارعِ والبساتين .

وإنك لتلمَسُ هذا الحنينَ العربيَّ الفطريَّ إلى المطرِ حتى في أزهَى عصورِ الحضـــارةِ العربيّةِ ، وفي ظروفِ حياةٍ خاليةٍ من شَظَفِ العيشِ و قسوتِه، تلقاهُ في أقصى أقـــاصي الدولةِ العربية ، عند شعراءِ الأندلسِ الذين كانوا في بُلَهْنِيَةٍ من العيشِ بلا مِراء ، فـهاكَ ابنُ حِمديسٍ الصّقَلّيُّ يُغَرِّدُ في استهلالِ موَشّحه الأشهر :

جادَكَ الْغَيْثُ إذَا الْغَيْثُ هَمَى ... يَا زَمَانَ الْوَصْـــلِ بِالأَنْدَلُسِ

لَـــمْ يَكُنْ وَصلُكَ إلاّ حُلُماً ... في الْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ الْمُختلِسِ

(الرّمَل)

وانظرْ إلى أوصافِ المطرِ ودرجاتِه[1] ، والدقّةِ الفطريةِ التي تخلو كلّ الخلُوّ من التكلُّـــفِ ، لأن ذلكَ قد أملَتْهُ الحاجةُ ؛ والحاجةُ إلى الدّلالَةِ اللُّغَوِيَّةِ ، مَثَلُها مَثَلُ كلّ حاجـــةٍ ، أمُّ الاختراع : "إذا أتت السماءُ بالمطرِ الخفيفِ قيلَ خَفَشَتْ و حَشَكَتْ ، فـــإذا اســـتمرَّ مطرُها قيل هَطَلَتْ وهَتَنَتْ ، فإذا صَبَّتِ الماءَ قيلَ هَمَعَتْ و هَضَبَتْ ، فإذا ارتفعَ صوتُ وقعِها قيلَ اهَلّتْ و استهلّت ، فإذا سالَ المطرُ بكثرةٍ قيلَ انسَكَبَ وانبَعَقَ ، فإذا ســـال

[1] فقه اللغة و أسرار العربية لأبى منصور الثعالبى ص ١٧٨-١٧٩

يَرْكَبُ بعضُه بعضاً قيلَ اثْعَنْجَرَ و اثْعَنْجَجَ ، فإذا دامَ أياماً لا يُقلِعُ قيلَ أثْجَمَ و أغبَطَ وأدْجَنَ ، فإذا أقلَعَ قيلَ أنجَمَ و أقْصَمَ وأفصَى . . . وأخَفُّ المطرِ وأضعفُه الطَّلُّ ، ثم الرَّذاذُ أقوى منه ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ، و مثلُه الرَّكُّ و الرِّهمةُ ..... ، و أول المطر رَشٌّ وطَشٌّ ، ثم طَلٌّ ورَذاذٌ ، ثم نَضْحٌ ونَضْخٌ وهو قَطْرٌ بين قَطرَيْن ثم هَطْلٌ و تَهْتان ، ثم وابلٌ وجَوْدٌ. "[1]

ويوردُ الثعالبيُّ عشراتٍ أخرى من أسماءِ المطرِ وَفقَ كلٍّ من الظواهرِ التي تصاحبُه أو التي تنجُمُ عن إصابتِه وجهَ الأرض ، ولا نريد أن نسترسِلَ في ذلك لأنه ينأى بنا عن مقصدِنا ، وإنما نريدُك أن تقِفَ على الدقةِ النوعيّةِ specificity التي جُبِلَ عليها الفكرُ العربيُّ البدائيُّ في رصدِه ما يَعرِضُ له من ظواهرَ في بيئتِه البريئةِ الأُولى قبل أن تترامَى أطرافُ دولتِه الكبرَى بعد البَعثةِ المحمّدية . و إنك واجدٌ مثلَ ذلكَ في ترتيبِ أصواتِ الرّعد ، وفي تفصيلِ الرياح ، وفي تقسيمِ خروجِ الماءِ وسَيَلانه من أماكنه ، وفي كَمِّيته ، وفي أوصافِ الآبارِ وترتيبِ السَّيْلِ وتفصيلِه ، و في تفصيلِ الرّمالِ والجبالِ و الزُّروعِ والثّمارِ والإبلِ وسائرِ الحيوان ، والخمرِ ، وكلِّ ما عَرَضَ للعربيِّ من مخلوقاتٍ وأحداثٍ وظواهرَ في بيئتِه التي تبدو للوهلةِ الأولى خاليةً من التعقيدِ والتّنوُّع .

ولا شَكَّ لَدَيْنا في أن الإنسانَ الأوروبيَّ الذي غَمَرَت الأمطارُ سُهولَه و جبالَه وأوديتَه في جُلِّ عصورِه لم يبتكرْ من الألفاظِ في أيٍّ من لغاتِه المتعددة مثلَ هذا العددِ الضخمِ من الألفاظِ العربيةِ التي تصِفُ المطرَ ، لا من حيثُ هي مترادفاتٌ ، وإنما من حيثُ هي دَرَجاتٌ في النّوعيّةِ ، مع الاختصاصِ الوصفيِّ لكلِّ لَفظَةٍ نوعيّةٍ منها بسمةٍ دقيقةٍ من السِّماتِ المتعددةِ للمطرِ ومراتبِه ، كلاّ بل لمراتبِ السحابِ أيضاً في كلِّ حالاتِه ، وما إلى ذلك مما هَفَت إليه نفسُ العربيِّ لُندرتِه ، ولم تَهفُ إليه نفسُ الأوروبيِّ لوفرتِه ، والممنوعُ مرغوبٌ كما يُقال .

---

[1] المصدر السابق .

وهكذا ترى أن الخَتْمَ الجغرافيَّ يُعمِلُ عملَه كلّما بسَطَ اللهُ على البشَـــرِ أو قَـدَرَ عليهم في رزقِهِمُ الطبيعيِّ الماثلِ في بيئتِهم على حدٍّ سواء .

ولعلّكَ ، من منظورٍ عصريٍّ ، تُنكرُ على اللسانِ العربيِّ ذلك التعـــدُّدَ اللفظـيَّ ، على الرغم من براءةِ ساحتِه من تهمةِ الترادفِ غيرِ المُجدي ، ولكنّا نُذكّرُكَ بأن ذلـــكَ الثراءَ في فنِّ القولِ ونوعيتِه لم يكن في عصرِه أمراً مفتعَلاً يؤدّيه العربيُّ متحَذْلِقاً ، و إنمـا كان شيئاً طبيعياً أقربَ إلى لغتِه العاميةِ الدارجةِ ، لأن لسانَ قريشٍ الذي سادَ ألسـنةَ العرب باعتبارِه فُصحاهُمُ المتواضَعَ عليها لم يكُنْ سِوى إحدى لهجـاتِ العـرب ، أى إحدى لُغاتِهمُ العاميةِ ، لأنها ما كان لها أن تَقْـهَرَ اللّـهجاتِ الثموديـةَ والصَفويّـةَ واللّحيانيةَ والحِمْيَريَّةَ وما إليها إلاّ من طريقِ جريانها على لسانِ قريشٍ في حياتها اليوميةِ جَرْىَ السَّلسالِ العَذْبِ اليسيرِ . ولئن صارت لهجةُ قريشٍ لغةَ آدابِ العربِ فيما بعدُ ، وفُصحاهُمُ المُعتَمَدَةَ ، فإن هذا لا يَنفِى أنّها كانت في عَصرِها الأوّلِ أبلَـغَ العاميّـاتِ العربية ، فلَوْلا جَرَيانُها على لسانِ الحيـاةِ اليوميّةِ لما جَرَت على لسـانِ الأدبِ ، و إلا فكيف باللهِ عَرَفَ الأدبُ طريقَهُ إليها ؟

في ظاهرةٍ مماثِلَةٍ ، هزَمَ اللسانُ العاميُّ الإيطاليُّ اللاتينيةَ في عُقرِ دارِها عندما هتـفَ به دانتى و بترارك في شعرِهما ، إذ أيقَنَ هذان الشاعرانِ المبدعانِ أن عاميّـــةَ إيطاليـا أفصحُ من فُصحاها العتيقةِ ، وأقربُ إلى وجدانِ الشعبِ ، وأشعَرُ من اللاّتينيّـــةِ الـتي رَسَفَ في أغلالِها اللّسانُ الإيطاليُّ رَدَحاً من الزَّمَنِ . فلا غَرْوَ أن تنتصِرَ اللّغةُ الأدنى إلى طبيعةِ الفِكرِ وحاجاتِهِ في أمّةٍ من الأُمم .

ولعلّكَ الآنَ لا تنكرُ على العربيةِ هذا التنوُّعَ الخِصْبَ في التعبيرِ عن ظـاهرةٍ مـن الظواهرِ أو كائنٍ من الكائناتِ متى عَلِمْتَ أن هذا التعدُّدَ اللفظيَّ كان أمـــراً مألوفـاً لديهم ، غيرَ مُتكلَّفٍ ، جَرَت به ألسنتُهم حياتِهمُ اليوميّة . و لعلّ ذلك نفسَـــهُ كـانَ السببَ في أن فطاحلَ الشعرِ الجاهليِّ لم يخرُجوا من قريشٍ ، وإنما من بطونِ العربِ الـتي دانت للهجةِ قريشٍ واستلهمَتْها لا كلَهجةٍ عاميةٍ قُرَشيَّةٍ مَحَلّيةٍ ، وإنما كفُصحَى عربيـةٍ أبلغَ في شاعريتِها من لهجاتِهم ؛ أما قريشٌ نفسُها فإنها لم تجدْ حاجةً مُلِحَّةً إلى الإبـداعِ في لُغةٍ اجتَبَتها من بينِ لُغاتِ العربِ ، ثم ألِفَتْها حتى لكأنّها جُبِلَت عليها ، ومـا انفكّـت

تبدعُها على نحوٍ مستمرٍّ في خطابها اليوميِّ ، وأسواقِها ، ومُعاملاتِـــها بـــلا عنـــاءٍ ولا تكلّف.

الأقاليم [1]:

الحجاز – تهامة :

عُرف الحجازُ بهذا الاسمِ لأنّ جبلَ السَّراةِ يمتدُّ من اليمنِ جنوباً إلى الشامِ في أقصى الشمالِ فكان بمثابةِ الحاجزِ بين أرض تِهامةَ الهابطةِ (الغَوْر) بحذاءِ الشـــاطئ الشـــرقيِّ للبحرِ الأحمرِ و بينَ أرضِ نجد المرتفعة ،وفيما بعدُ اعتُبرت تهامةُ تجـــوُّزاً قســـماً مـــن الحجاز.وأشهرُ مُدُن هذا الإقليمِ مكةُ و المدينةُ (يَثرِب) و الطّائف . والأخيرةُ أخصبُها أرضاً وألطفُها مُناخاً كما تقدّم .

ومكةُ هي المركزُ الدينيُّ والاقتصاديُّ والثقافيُّ لجزيرةِ العربِ منذُ أقامَ بها إبراهيـــمُ وولَدُهُ إسماعيلُ عليهما السلامُ بيتَ اللهِ الحرامِ (الكعبة).[2] وقد كانت في غابرِ عـــهدِها بؤرةَ الديانةِ الحنيفيةِ (مِلّة إبراهيم) إلى أن أخذت غيومُ الشّركِ تنعقدُ في سمائِها فبـــدّلَ قومُها الضلالةَ بالهدى ، وأعلَوْا أصنامَهم في صحنِها ، ودنّسوا البيتَ الحـــرامَ ، و إن ظلّ محجّاً ومزاراً يؤمُّه عَبَدَةُ الأوثانِ من كلّ مكانٍ بالجزيرةِ وغيرِهـــا . و قـــد ذَكَـــرَ هيرودوت الإلات (اللات) على أنها من أكبرِ أربابِ العرب[3] .

وكانت مكةُ في الجاهليةِ سوقاً رائجةً للسِّـــلَعِ ، والنســـاءِ (و فيـــهنّ الرقيـــقُ والعاهرات) ، والفنّ. ولم يكن هذا الفنُّ بالطبعِ إلا الشعرَ العربيَّ الذي ترعـــرَعَ في هذا المعرضِ السنويِّ الذي احتفَت به العربُ كمِهرَجانٍ يُنتظر من العامِ للعامِ بفـــارغِ الصبر.وكانت عُكاظ أشهرَ أسواقِ العرب[4]، يحتكمُ الشعراءُ إلى جمـــهورِها وإلى ذوى المكانةِ فيها فيما يعرِضون من شعر ، فيحظىَ أجودُ ما يُلقَى مـــن قصـــائدَ بـــالتكريمِ والاستحسانِ ، و يُدَوّنُ في بعضِ الأحيانِ بماءِ الذّهَبِ على الحريرِ القادمِ مـــن مصـــرَ

---

[1] المفصل في تاريخ الأدب العربي : أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، على الجارم ، عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف .

[2] سميت الكعبة لأنها بناء مُكَعّب الشكل (فقه اللغة للثعالبى ، ويل ديورانت : قصة الحضارة – عصر الإيمان ، ج ٢ م ٤ ص ١٨.

[3] ويل ديورانت : قصة الحضارة ، ج ٢:م٤ ص ١٩ .

[4] كانت هناك أيضاً سوقان أخريان هما مجنة و ذو المجاز .

(القُباطيّ) ، ومن ثمّ تسميةُ هذا البعضِ القليلِ بالمُذهّبات ، و هي المعلّقـــاتُ السّـبعُ الشهيرة[1]، لأنها كانت تُعلّقُ على جدرانِ الكعبة ، وإن كان هذا الأمـــرُ مشـكوكاً في صحتِّه .وقد زَعَمَ لامنس أن مكةَ كانت أشبهَ بجمهوريةِ البندقيةِ التجاريةِ[2]؛ وفي ذلـــك شيٌ من المبالغةِ لا يخفَى لأن المجتمعَ المكّيَّ لم يَعْدُ كونَهُ اتحادَ عشائرَ ارتبطَ بعضُها ببعـضٍ في حلفٍ لغَرَضِ سِدانةِ الكعبةِ من جهةٍ،والقيامِ على تجارةِ القوافلِ من جهةٍ أخرى[3].

وكانَ يسكنُ الحجازَ من قبائلِ العربِ الأوسُ والخَزْرَجُ في يثرب،وقريـشٌ في مكـةَ ، وثَقِيف في الطائف ، و هُذَيْل في هضابِ جنوبيِّ مكة ، و قد اشتُهِر شعرُ الهُذَلِيّين برقتِـه و جمالِه ، وهو يكادُ أن يكونَ الديوانَ الوحيدَ من الشعرِ الجاهليِّ الذي وَقَعَ لنا منسوباً إلى القبيلةِ التي أبدعته[4]، وإن كان بعضُ هذا الشعرِ جاهلياً ، وبعضُه الآخرُ منتحَلاً[5] .

نجد[6] :

تنحدرُ هضبةُ نجد الفسيحةُ من الغربِ إلى الشرقِ متصلةً بأرضِ العَروضِ (اليمامـة والبحرين) . والعاليةُ هي جزؤها المرتفعُ مما يلي الحجاز ، و السافلةُ جزؤها الواطئُ مما يلي العراق . ويَنبُتُ بها الغضا (الأثْل) ومن ثمّ عُرِف سكانُ نجـــد بـــأهل الغضـــا . والدهناءُ أو رملةُ عالج الفاصلةُ بين نجد و البحرين هي منازلُ قبيلتيْ تميـــم و ضبّـــة في الجاهلية والإسلام . و جُلُّ أرضها قِفارٌ غيرُ ذاتِ زرعٍ فيما خلا قسمَها الشماليَّ الـذي ينمو في شتائه النبتُ و المرعى .و إلى الشمالِ من نجد.تقعُ باديةُ الشامِ الوفيرةُ الأوديـــةِ والواحاتِ ، وباديةُ العراق (بادية السّماوة) ، وهما ليستا قسماً من نجد.

العَروض :

ويشمل هذا القسمُ اليمامةَ و البَحرين ، و يُظَنُّ أنها كانت مساكنَ طسْمٍ و جَديـــسٍ وهما من أشهرِ قبائلِ العربِ البائدة .

---

[1] المصدر السابق ص ١٥ .

[2] Lammens : La Mecque , p. 175

[3] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي – الطبعة العشرون ، دار المعارف ، ص ١٧-٢١ .

[4] ديوان الهذليين – الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

[5] د. على الجندي : في تاريخ الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ص ١٧٠ –١٧١ .

[6] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي (السابق)

اليمن :

كانت اليمنُ أخصبَ أقاليمِ الجزيرةِ العربيةِ و أقصاها عن شَظَفِ البداوةِ ، وأدناهـا إلى دِعة الحضارة . وقد تمتعت اليمنُ بالخيرِ والنماءِ منذُ أقدمِ العصورِ لما تفرّدَت بـه مـن سائرِ أرجاءِ الجزيرةِ العربيةِ من مطرٍ هَتونٍ ، وثمرٍ وفيرٍ ، فقامَت في ربوعِها حضـاراتٌ كبرى ، لمّا يكشف المُنقّبون من الأثريّين عن ملامحِها حتى يومنا هذا . و قـد وُجـدت بأرضِها شواهدُ على ازدهارِ فنونها وعلومِها ازدهاراً عظيماً، حيثُ أقامت بها ممـالكُ متتابعةٌ شَيَّدَت السدودَ والأنظمةَ المتطورةَ للزراعةِ و الرَّيِّ مما كَفَلَ لأهلها عَيْشاً رَغَداً، وقَراراً في البالِ والسُّكنَ حتى أخنَى عليهم الدهرُ فيمن أخنى عليه من حَضَرٍ – والدهرُ لا يجورُ على بدوٍ بطبعِه ، فلا مأرَبَ له فيهم – فتوالت عليهم عادياتُه مـن كـوارثَ وغَزواتٍ بغير إمهال، فأبدلهم من نعمائهم شقاءً مقيماً ، و من عِزّهم فاقةً و بؤساً .

ومن حَيْثُ إنّ العقيدَةَ جزءٌ لا ينفصِمُ من الحضارة ، وليسَ مُجَرّدَ مَظهَرٍ لها ، فقـد وقعَت المسيحيةُ موقعاً حَسناً من قلبِ اليمنِ في العصرِ الذي سبَّحَت فيه جزيرةُ العـربِ بحمدِ الأصنامِ ، وخرّت لها ساجدةً . وكانت نجرانُ موقعَ النصرانيةِ في اليمن ، وكـلنت بها كعبةٌ يُعَظّمونها في مقابلِ كَعبةِ مكة ، واتصلَت أسبابُ اليمن بالحبشةِ لاتحادِهمـا في العقيدة .

ومن مدنها مأرب التي كان بها سدُّها الأشهرُ الذي لم تزَلْ آثارُه باقيةً إلى اليـوم ، وصنعاءُ وبها قصرُ غُمْدانَ المعروفُ الذي يُقال إن سيفَ بـنَ ذي يَـزَن اسـتردَّهُ في الجاهليةِ من الحبشة ، وقد استولَت عليه بعدَ غزوِها اليمنَ . وإلى الجنوبِ من صنعـاءَ تقعُ ظَفار التي كانت حاضرةً للحِميَريّين ، وفى أمثلة العرب : " من دَخَلَ ظفارَ حَمَّـرَ " أى نطقَ باللغة الحِمْيَريّة . وقد ذَكرَ القرآنُ صَنَمَيْن عبدتهما قبيلةُ هَمَدانَ وهما يَغـوث ويَعوق ، مما يَدُلُّ على أن المسيحيةَ لم تنتشرْ في كل بقاعِ اليمنِ السعيدِ أو بلادِ العـربِ السعيدةِ كما سمّتها اليونان .

القَوْمُ : (الجاهليّون – العرب و الأعراب – العاربة و المستعربة – – ممالك و أمم)

الجاهليون :

الجاهلية ، من حيث الاشتقاق ، مصدر صناعي من "الجاهلي" نسبة إلى الجهل[1]، و هو نقيض العلم ، و هو الزَّيْغُ عن الحق ، و الميْل عنه . و الحق المَعْنِيُّ هنا هو الإيمان برب واحد بارئ للكون والكائنات؛ و لا تعنى الجاهلية بالضرورة جهلا بهذا الحق ، و إنما بالأحرى مكابرة ومماراة في الإقرار به ، على علمه . والحق المجهول أو المتجاهل هو أيضا الحكمة بمفهومها الرحب من روية وصبر وتبصر وحسن تقدير وسماحة نفس وبعد عن التعصب.

و صيغة "جاهَلَ" على وزن فاعَلَ تحمل معنى المصاحبة ، و المبالغة أو المزايدة و الإمعان . فالجاهلي يصاحب الجهل ، و يمعن فيه ، و يَعْمَهُ عن الحق طغياناً ، و عقوقاً ، و تمرداً . و ينطوي ذلك على خصال أخرى مثل الحُمْق ، و النَّزَق ، و السَّفَه، والحَمِيَّة ، و السُّرَّعَة ، و الغرور .

و الذي لا شك فيه أن الجاهليين لم يَغفَلوا عن سيرة الرُّسُل و الأنبياء ، ولا عن طبيعة الأمانة التي كُلِّفوا بإبلاغها إلى البشر ؛ فقد كان بجزيرة العرب يهود و نصارى ، و من المعلوم أن يهود يثرب في الأصل عرب تَهَوَّدوا .و قد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات لليهود في تَيْماءَ ، و في فَدَك ، و في خَيْبَر ، و فى وادي القرى ، و في يثرب وهي أهمها جميعا[2]. و إلى يثرب نزحت الأوس و الخزرج من اليمن نحو عام ٣٠٠ م بعد أن سبقهم اليهود إلي استعمارها بزمن[3].

---

[1] على الجندي (السابق) ص ٨ .

[2] أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الخامسة عشرة ، ص ٢٩ .

[3] أحمد أمين (السابق)

و في نجران باليمن وقعت النصرانية ، و ما كان أهلوها بمقطوعي الأسباب بأهل البادية ، إذ كانت نجران مصنعاً عظيم الخطر لأسلحة العرب ، والأنسجة الحريرية ، و الجلود ، و الحُلَلِ اليمانية التي تغنّى بها الشعراء .

فالجاهلي لم يكن مُنبَتَّ الصلة بفكرة الإيمان و التوحيد ، و إنما كان مكابراً ، صَلِفاً ، مجارياً للعُتُوِّ و الجهل ، متعامياً عن الحق ، لأن الحرية التي رتع الأعرابي في ملاعبها كانت أرحب كثيراً من حرية المواطن الناعم بديمقراطية "وِست مينستر" Westminster Democracy المعاصرة لنا ، و التي يعتبرها السياسيون أوْجَ مطمح البشر إلى الحرية و العدالة .

و لم يكن ذلك بالطبع نتيجة لديمقراطية منظمة عرفتها البادية ، و إنما هو راجع إلى الفوضى ، و البدائية ، و الهمجية التي فرضتها حياة الحِلِّ والتَّرحال ، و الافتقار إلى الأمن في المعاش و المَوْرِد و المطعم .

و يوجز لنا بارنز Barnes[1] عالم الاجتماع ذلك الفرق بين الإنسان في المجتمع البدائي و بينه في المجتمع المدني الحديث :

اتجاه التطور

المجتمع البدائي	المجتمع المدني
١–دور الفرد تحدده العلاقات الشخصية	١– دور الفرد تحدده العلاقات غير الشخصية
٢–الفرد مرتبط بسائر الأفراد و المساواة تامة	٢–توجد طبقات اجتماعية
٣–القرابة و النسب أساس العلاقات الاجتماعية	٣–العمل و الأجر و المِلْكيّة الفردية أساس العلاقات
٤–النظام : القبيلة و العشيرة	٤– النظام : الدولة

وحسبك النظر إلى هذا البيت ، و قائله عمرو بن كلثوم ، لتدرك المفهوم الجليَّ للجاهلية :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا (الوافر)

---

[1] Barnes, H. : An Introduction to the History of Sociology , New York , ١٩٥٨ , p. ١٤٤

ولعلّكَ تلمَسُ في هذا البيتِ الذي سنعودُ إليهِ في دراستِنا للمعلّقة ، روحَ المكابرةِ والصّلَفِ والإمعانِ في الغيِّ والباطل ، كما لا يخفَى عليكَ الاعتدادُ والافتتانُ بالنفس ، ولو كلّفا الشاعرَ الخطلَ في الرأيِ والقول . هكذا الجاهليةُ ، ضيقٌ في الأُفقِ ، و تبرّمٌ بالصُّدوع بالأمر ، وقصورٌ في النظرةِ إلى الكونِ والأشياء .

ومن قبلِ ذلك بقرون ، تطلّعت الروحُ اليونانيةُ إلى أقصى مطامحِ الخيالِ والتّوق إلى المعرفةِ ؛ فبحثَت عن ماهيّاتِ الأشياء ، وتفكّرت في آياتِ الوجودِ برؤيةٍ كُلّيةٍ شاملةٍ ، وربطَت المُسبَّبات بأسبابها ، وخَلُصت إلى دَوَران المعلولِ وراء عِلّتِه وجوداً وعدماً . أما الأعرابيُّ فلم يؤتَ هذه البصيرةَ الثاقبة ، أو أنه صدَّ عنها إذ وَخَطَ شعاعُها حُلْكَةَ عقلِه ، فكأنه عَقَلَ عقلَهُ على الخَسْف و الهوان كما قال المتلمّس :

ولايُقيمُ على ضَيْمٍ[1] يُرادُ بهِ ... إلاّ الأذَلاّن عيرُ الحيّ[2] وَالوَتِدُ
هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَعْقوصٌ[3] برُمّته ... وذا يُشَجُّ فلا يَرْثِي[4] لهُ أحَدُ

(البسيط)

العَرَبُ – الأعراب :

يقولُ ابنُ منظورٍ المِصريُّ ، صاحبُ لسانِ العَرَب :

"العَرَبُ و العُرْبُ جيلٌ من الناسِ معروف ، خِلافُ العَجَمِ ، و هما واحدٌ مثلُ العَجَمِ والعُجْم ، مؤنّث... والعَرَبُ العاربةُ ، الخُلّصُ منهم، و أُخِذَ من لفظِه فأُكّدَ به ، كقولِك : ليلٌ لائلٌ ، تقولُ : عربٌ عاربةٌ وعَرْباء : صُرَحاء . و مُتَعَرِّبةٌ و مُسْتَعْرِبَةٌ : دُخَلاء ، ليسوا بخُلّص . والعربيُّ منسوبٌ إلى العَرَب ، و إن لم يكنْ بدوياً ، والأعرابيُّ: البدويُّ، وهُم الأعرابُ ، والأعاريبُ جمعُ الأعراب . وليسَ الأعرابُ جمعاً لعَرَب ، كما كان الأنباطُ جمعاً لنَبَط ، وإنما العَرَبُ اسمُ جِنس . والنَّسَبُ إلى الأعرابِ : أعرابيٌّ

---

[1] "خسف" في رواية أخرى .

[2] " الأهل" في رواية .

[3] " معقول" في رواية .

[4] "يبكى" في رواية

... و رَجُلٌ مُعْرِبٌ إذا كانَ فصيحاً ، و إن كان عَجَمِيَّ النَّسَب ... و الأعـــرابيُّ إذا قيلَ له : يا عربيُّ ، فَرِحَ بذلك و هَشَّ له ...و قال قتادة : كانت قريشٌ تجتـــبي ، أى تختار، أفضلَ لغاتِ العرب ، حتى صار أفضَلَ لغاتِها (أى لغاتِ العرب) لغتُها (أى لغةُ قريش) ...والتعريبُ : الإكثار من شُرْبِ العَرِب و هو الكثيرُ من الماءِ الصـــافي ، ... و هو أيضاً : قطع سَعَف النخلِ ، و هو التَّشذيبُ ... و عَرِبَ الرجـــلُ إذا غَـــرِقَ في الدنيا [1]" .

وفي الذِّكرِ الحكيم :

"وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إنّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الّذى يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ و هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين".

(النحل / ١٠٣)

"نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِين .عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِين . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين ."

(الشعراء / ١٩٣ – ١٩٥)

"وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىً أُولَئِكَ يُنَـــادَوْنَ مِـــنْ مَكَانٍ بَعِيد ."

(فُصِّلَتْ / ٤٤)

"إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون."

(يوسف / ٢)

"وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِـــنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ."

(الرعد / ٣٧)

"وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُـــونَ أَوْ يُحْـــدِثُ لَـــهُمْ ذِكْراً."

(طه / ١١٣)

"قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون."

(الزُّمَر / ٢٨)

---

[1] ابن منظور الأفريقي المصري : لسان العرب ، دار المعارف بمصر ، ج ٤ : ص ٢٨٦٣ و ما بعدها .

"كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءاناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون."

(فُصِّلَتْ / ٣)

"وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ."

(الشورى / ٧)

"إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءاناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون."

(الزخرف / ٣)

"وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشرَي لِلمُحْسِنِينَ"

(الأحقاف /١٢)

"وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيم."

(التوبة / ٩٠)

"الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرَاً وَ نِفَاقاً وَ أَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم."

(التوبة / ٩٧)

"وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم."

(التوبة / ٩٨)

"وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم."

(التوبة / ٩٩)

"وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيم."

(التوبة / ١٠١)

"مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ."

(التوبة / ١٢٠)

"يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وإن يَأْتِ الأحزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلا."

(الأحزاب / ٢٠)

"سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا."

(الفتح / ١١)

"قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً."

(الفتح / ١٦)

"قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم ."

(الحجرات / ١٤)

فها أنتَ ذا ترَى وجهَ الاختلافِ بينَ العربِ والأعرابِ ، فهؤلاءِ بدوٌ رُحَّلٌ ، وأولئِكَ حضَرٌ قارُّونَ مُقيمون . والأعرابُ ، كما ترَى من وصفِ القرآنِ لهم ، منافقونَ "مَرَدوا" أى مَرَنوا على النفاقِ و دَرِبوا به، وهم متقاعسون عن النُّزالِ والمصاوَلَةِ آنَ البأسِ ، وفيهم من يتربَّصُ بالمؤمنينَ الدوائرَ ويتحيَّنُ لهمُ المصارعَ ، كما أنهم – لا على إطلاقِهم بالتأكيدِ وإنما بالقياسِ إلى غيرِهم – أشدُّ كُفراً ونفاقاً وأجدرُ ألاَّ يعلموا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه ، و لكنَّ من عَمِلَ منهم عملاً صالحاً سيُدخِلُه اللهُ في رحمتِه .

ولابنِ خَلدونَ رَأيٌ في العَرَبِ لا يَخلو من قَسْوَةٍ، ولا فَرْقَ عندَهُ بينَ العَرَبِ والأعرابِ ، فيقولُ فيهم في مُقَدِّمَتِه[1]:

"إنهم لطبيعةِ التوحُّشِ الذي هم فيهِ أهلُ انتهابٍ وعَبَثٍ... وهم إذا تغلَّبوا على أوطانٍ أسرَعَ إليها الخرابُ ، لأنهم أمّةٌ وحشيّةٌ ، فينقلون الحَجَرَ من المباني ويُخَرِّبونها لِيَنصِبوهُ أثافيَّ للقِدر ، ويُخَرِّبونَ السّقفَ لِيَعمُرُوا به خيامَهم ، ويتخذوا الأوتادَ منه لبيوتِهم ، وليسَ عندَهم في أخذِ أموالِ الناسِ حدٌّ ينتهونَ إليه ، ... إنما هَمُّهُم ما يأخذونَهُ من أموالِ الناسِ نُهباً أو مَغرَماً ، ... وهم متنافسونَ في الرياسةِ وقلَّ أن يُسَلِّمَ واحدٌ منهم الأمرَ لغيرِه ولو كان أباهُ أو أخاهُ أو كبيرَ عشيرتِه ... وانظرْ إلى ما مَلَكوه من الأوطانِ من لَدُنِ الخليفةِ كيفَ تَقَوَّضَ عمرانُه وأقفَرَ ساكنُه ، فاليمنُ – قرارُهم – خرابٌ إلا قليلاً من الأمصارِ ، وعراقُ العربِ كذلكَ قد خَرِبَ عمرانُه الذي كان للفُرسِ أجمع ، والشامُ لهذا العهدِ كذلك . وهم أصعَبُ الأممِ انقياداً بعضِهم لبعض ، للغِلْظَةِ والأَنَفَةِ وبُعدِ الهِمَّةِ والمنافسةِ في الرِّياسة ، فقلّما تجتمعُ أهواؤهم ... و المباني التي يختطُّونها يُسرِعُ إليها الخرابُ لقِلّةِ مراعاتِهم لحسنِ الاختيارِ في اختطاطِ المدُن ... وإنما يُراعونَ مراعيَ إبلِهم خاصّة ، لا يُبالونَ بالماءِ طابَ أو خَبُثَ ، و لا قَلَّ أو كَثُر ... وانظرْ لَمّا اختطُّوا الكوفةَ والبصرةَ والقيروانَ كيف لم يُراعوا في اختطاطِها إلا مراعيَ إبلِهم وما يَقرُبُ من القَفرِ ومسالكِ الظَّعن ، فكانت بعيدةً عن الوضع الطبيعيِّ للمُدُن ، ... وهم أبعَدُ الناسِ عن الصنائعِ لأنهم أعرَقُ في البدوِ وأبعدُ عن العمرانِ الحضريِّ وما يدعو إليه من الصنائعِ وغيرِها ، ... وهم أبعدُ الناسِ عن العلومِ ، لأنّ العلومَ ذاتُ ملكاتٍ محتاجةٌ إلى التعليمِ ، فاندرَجَت في جملةِ الصنائعِ ، والعربُ أبعدُ الناسِ عنها كما قَدَّمنا ، فصارت العلومُ لذلكَ حَضَرِيَّةً ، وبَعُدَ العربُ عنها وعن سوقِها ، والحَضَرُ لذلك العهدِ هم العَجَمُ أو من في معناهم من الموالي ، ...ولم يَقُمْ بحفظِ العلمِ و تدوينِه

---

[1] مقدمة ابن خلدون ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٧ ، من الفصل السادس و العشرين إلى الثامن والعشرين ، ص ١٣٩ – ١٤١ .

إلا الأعاجمُ ... وهم ، مع ذلكَ ، أسرَعُ الناسِ قبولاً للحقِّ والهدَى ، لسلامةِ طباعِهم من عِوَجِ الملكاتِ ، و براءتِها من ذميمِ الأخلاقِ ، إلا ما كان من خُلُقِ التوحُّشِ القريبِ المعاناة ، المتهيِّءِ لقبول الخير . و هم أقربُ إلى الشجاعة ، لأنهم قائمونَ بالمدافعةِ عن أنفسِهم ، لا يَكِلونها إلى سواهم ، و لا يثِقونَ فيها بغيرِهم ، فهم دائماً يحمِلون السلاح ، ويتلفّتون عن كلِّ جانبٍ في الطرُقِ ،... وهم لا يزالون مَوْسومينَ بين الأُمَمِ بالبيانِ في الكلامِ ، و الفصاحةِ في النطقِ ، والذّلاقةِ في اللسانِ ، و البيانُ سِمَتُهُم بين الأمم منذ كانوا . "

ويقولُ الجاحظُ[1] في العَقلِ العَرَبيِّ مُقارَناً بعقولِ الأمَمِ الأخرى :

"فأما الهندُ فإنما هم معانٍ مُدَوَّنَةٌ ، وكتب مخلّدَة ، ... و لليونانيين فلسَفةٌ وصناعةُ مَنطِق ، ... وفي الفُرسِ خُطَباء ، إلا أن كلَّ كلامٍ للفرسِ ، وكلَّ معنى للعَجَمِ ، فإنما هو عن طولِ فكرةٍ و عن اجتهاد رأي ، وطول خِلوةٍ ، وعن مشاورةٍ و معاونةٍ ، وعن طولِ التفكُّرِ ودراسةِ الكتب ، ... وكلُّ شيءٍ للعربِ فإنما هو بديهةٌ وارتجالٌ ، وكأنه إلهامٌ . ليست هناك معاناةٌ و لا مكابدةٌ ، ولا إجالةُ فِكرٍ ولا استعانةٌ ، وإنما هو أن يصرِفَ وَهمَهُ إلى الكلام ، ... فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثالُ عليه الألفاظُ انثيالاً ، ثم لا يَقيدُهُ على نفسهِ ، ولا يَدْرُسُهُ أحداً من وَلَدِه ، وكانوا أُمِّيّينَ لا يكتُبون ، ومطبوعينَ لا يتكلّفون ، وكانَ الكلامُ الجيِّدُ عندَهم أظهرَ وأكثر ، وهم عليه أقدرُ ، وله أقهرُ ، ... وليسَ هم كَمَن حَفِظَ علمَ غيرِه واحتذَى على كلامِ من كان قبلَه ، فلم يحفَظوا إلا ما عَلِقَ بقلوبِهم ، و التحَمَ بصدورِهم ، واتصَلَ بعقولِهم من غيرِ تكلُّفٍ ولا قصدٍ ، ولا تحَفُّظٍ ولا طَلَب . "

ويرى أوليري[2] أن العربيَّ ماديٌّ بطبيعتِه ، جامدُ العاطفة ،محدودُ الخيال معتدٌّ بذاتِه ، كريمٌ ، شديدُ الوفاءِ لقبيلته .

---

[1] الجاحظ : البيان و التبيين ، شرح و تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج ٣ ، مجلد ٢ ص ٢٧ – ٢٨ .

[2] O'Leary : Arabia before Mohammad

ويقولُ أحمد أمين[1]: " وفي الحقِّ أنّ العربيَّ ذكيٌّ ، يظهرُ ذكـــاؤه في لغتِـــه ، ... ولَكنْ ليسَ ذكاؤه من النوعِ الخالقِ المبتكر ، فهو يقلّبُ المعنى الواحدَ علـــى أشـــكالٍ متعددة ، فيبهرُكَ تفنُّنُه في القولِ أكثرَ مما يُبهرُكَ ابتكارُه للمعنى ، وإن شئتَ فقـــلْ إن لسانَه أمهرُ من عقلِه .خيالُه محدودٌ ، وغيرُ مُتنوِّعٍ ، فقلما يرسُمُ له خيالُه عِيشَةً خـــيرا من عيشتِه ، ... لذلك لم يعرف المثلَ الأعلى لأنه وليدُ الخيال ، و لم يضَعْ له في لغتِـــه كلمةً واحدةً دالّةً عليه ، ... وقلّما يسبحُ خيالُه الشعريُّ في عالمٍ جديدٍ يسقى منه معنى جديداً ، و لكنه في دائرتِه الضيّقةِ استطاعَ أن يذهبَ كلَّ مذهَب ."

والذي نراهُ فيما عرضنا لكَ هو أن أصحابَ هذه الآراء ، باستثناء أحمد أمين الذي استدركَ في موضعٍ آخرَ من كتابِه مفرِّقاً بين عربيِّ الجاهليةِ و عربيِّ الإسلام ، قد خَلَطوا بين العربِ والأعرابِ من جهةٍ ، و بين حياة العربيِّ والأعرابيِّ قبلَ الإسلامِ وبعدَه مـــن جهةٍ أخرى. فليس عربُ البادية ، ولاحَضَرُ يثربَ ومكةَ والطائفِ واليمنِ في الجاهليـــةِ هُمْ أنفسِهم بعدَ اتساعِ رُقعةِ الدولةِ الإسلاميةِ ، لأنه قد طرأَ على فكرِهـــم ولســـانِهم ومخيِّلَتِهم تحولاتٌ كبرَى أحدثَها القرآنُ ، وأحدثَتها القِيَمُ التي أرستها العقيدةُ الجديدةُ ، وأحدَثَتها مخالطتُهم عِدَّةَ أممٍ وألسنةٍ ذاتِ حِجْرٍ وعلمٍ وأدبٍ وفنون .

وينبغي أن نُسَلِّطَ الضوءَ على أمرٍ جوهري أغفلَهُ هؤلاءِ المحلّلونَ لشخصيةِ العربيّ ، ألا وهو خضوعُه وولاؤه غيرُ المتبصِّرِ وغيرُ المشروطِ للمجتمـــعِ الأبـــويِّ Patriarchal society الذي نشأَ فيه .ومن طبيعةِ هذا المجتمعِ تبجيـــلُ الأبِ (شـــيخِ القبيلـــة) ، لا باعتبارِه فوقَ القانونِ ، و إنما باعتبارِه – حيثُ لا قانونَ – القانونَ نفسَهُ .

و لم يكنْ هذا الأبُ المبجَّلُ بحاجةٍ إلى تأكيدِ مكانتِه السامِيةِ ، شبهِ المَلَكِيَّةِ على غِـــرار لويس الرابع عشر ، الملكِ الفرنسيِّ الذي كانت كُنْيَتُهُ : "الملكَ الشمس" Le Roi Soleil لأن هذا الأبَ العربيَّ كان بمثابةِ الشمس بالفعلِ التي يدورُ في فَلَكِـــها التوابـــعُ مـــن الأفراد. بيْدَ أنّ الفنانَ العربيَّ الجاهليَّ (الشاعر) ، الواقعَ في رِبْقَةِ الهيمنةِ الأبويةِ علـــى

[1] فجر الإسلام ص ٣٧ .

الأقدارِ والمصائر ، لم يكنْ في جميعِ الأحيانِ مُصانعاً لأبيه ، منافقـاً لـه ، محتاجـاً إلى الارتزاقِ بفنِّه من طريقِ تملُّقِ هذا الكبيرِ المَهيبِ بمثل ما اضطُرَّ إلي ذلك جُـلُّ شـعراءِ العربيةِ بعدَ الإسلامِ الذين جاهدوا من أجلِ ادّخارِ يدٍ لهم في بلاطِ السلطان ، فوَلَّـوْا وجهَ فنِّهم شَطرَه ، وأولَوْا المديحَ في شعرِهم خيرَ عناية ، ولَجّوا فيه حتى أصبحَ أشـهرَ أغراضِ الشعرِ العربيِّ في تاريخِه المديد .

وفي تاريخِ الأدبِ الجاهليِّ شواهِدُ غيرُ قليلةٍ على نَبراتِ التَمَرُّدِ والرَّفـضِ لمبـدأ توظيفِ الشعرِ والشاعرِ بوقاً إعلاميّاً ودعائيّاً للقبيلةِ ، وهي نبراتٌ تعلو فيـها ذاتيّـةُ الفنانِ فوقَ كلِّ اعتبارٍ . وسنلمَسُ ذلكَ بجلاءٍ عندما نعرضُ لشعرِ امرىءِ القيسِ الملِـكِ الضّليلِ المارقِ الذي لم يُرِدْ غيرَ وجهِ الفنِّ فخَرَجَ عن طَوْعِ أبيهِ حُجـرٍ سَـيِّدِ قومِـهِ ومَلِكِهم ؛ وسنلمَسُهُ أيضاً في شعرِ الغُلامِ المقتولِ طَرَفَةَ بنِ العَبدِ ، وفي شعرِ الصّعاليكِ، والمُتَيَّمينَ ، وخُلَعاءِ القَبائلِ ، والأغربَةِ (الذينَ سَرَى إليهِمُ السّوادُ مـن أُمّهاتِـهم) ، وغيرِهم .

وإننا نرَى أنهُ لو كانَ الخيالُ الشعريُّ الجاهليُّ – الذي يشكّكُ بعـضُ النقـادِ في خصوبتِه –قد تُرِكَ على سَجيَّتِه البريئةِ فيما تلاهُ من عُصورٍ ، فأُتيحَ له النموُّ الطبيعـيُّ للفنِّ الحُرِّ المترفِّعِ عن التمرُّغِ عندَ أعتابِ السلاطينِ أملاً في الجُودِ والعطاءِ ، لكانَ بـين أيدينا اليومَ من الشعرِ العربيِّ ما يفوقُ كلَّ الدُّرَرِ[1] واليتيماتِ والروائعِ التي وقعَت لنـا منه . ولم يكن هذا الغُلُوُّ في التملُّقِ البغيضِ إلاّ انحناءةً ، بل سـجدةً للخيـالِ الفـنيِّ مديدةً، بطولِ تاريخِ الشعر ، ولعنةً ، وآفةً ، وكارثةً لَحِقْنَ به جميعا. فإنّ الفنَّ حريـةٌ لا غَيْر ، بل هو مطلقُ الحرية ، وصِدقٌ كلُّه ، مطلَقُ الصِّدقِ ، و تلقائيةٌ ذاتيـةٌ خالصـةٌ تُنَظِّمُها الصّنعة ، و تُصلح من شأنها ، ولكنّه لا يبدأُ من الصّنعةِ ولا ينبُعُ منها . والبطـلُ المغوارُ الذي يجتازُ المفاوزَ والأدغالَ والأهوالَ إلى مراتعِ الحريةِ والصدقِ والتلقائيةِ هـو خيالُ الفنانِ بغيرِ شك .أما النفاقُ والمصانعةُ فلا بُدَّ لهما من الصّنعةِ في المحـلِّ الأول ، فيَنكُصُ الخيالُ على عَقِبَيْهِ ، و تُتَكلّف الصُّوَرُ ، ويتحوّلُ وَلاءُ الفنانِ عـن مَلَكَتِـهِ إلي

[1] تُجمَعُ دُرّة على دُرٍّ أو دُرَرٍ .

جَيْبِهِ وما يثقلُه من نائلٍ يلقيه إليه الكبيرُ الذي يصبحُ جمهورَه الأوحَدَ وهَمَّـــه المقيـــمَ وشُغْلَه الشاغل.

هذه حالُ الشعرِ العربيِّ بعدَ قيامِ الدولةِ الإسلامية ،وبالأحرَى بعدَ إقحـــامِ بدعَـــةِ المُلْكِ علىالحكومةِ الإسلاميّةِ. وهي البدعَةُ التي استهَلَّت بها دَولَةُ الطُّلَقـــاءِ الأُمَويّـــةُ حُكمَها ، وأورَثَتها العَباسيّينَ حتى صارَت سُنَّةً احتذاها كلُّ من حَكَمَ بعدَهم.

أما الشاعرُ الجاهليُّ – و إن عَرَفَ المديحَ وطَرَقَهُ – فقد صَرَفَ جُلَّ هَمِّه إلى الشعرِ الغنائيِّ ، و قد كان الشعرُ الجاهليُّ غنائياً ردَّدَتْهُ القِيان، وتعدَّدَت أغراضُه بين الحماسةِ، والمراثي ، والنسيبِ ، والهِجاء ، والأضيافِ ويلحَقُ بهم المديحُ[1] ، وغيرُ ذلك .
وكانَ جمهورُ الشاعرِ الجاهليِّ الشعبَ العربيَّ في الأسواقِ الكبـــيرةِ للشـــعر ، وكـــان المُحَكّمون في جودةِ هذا الشعرِ ، والمُقَوّمون له سادةً بُلَغاء ذوى خَطَرٍ في قومِهم بـــلا شكٍّ ، مُجَرَّدينَ بمثلِ ما الشاعرُ مجرَّدٌ من شُبهةِ المَلَقِ والمنفعة. وقد كانَ في الجـاهليين ، كما قَدَّمنا ، شعراءٌ أمراءٌ كامرئ القيسِ ، بمثلِ ما كان فيهمُ الصعاليكُ المنشقون علـى عشائرِهم ، الهائمونَ على وجوهِهم في الأرضِ ، و منهم النّهّابون للقوافلِ الذين نَبَـــوْا بنغمةِ الشعرِ الجاهليِّ عن إغراقِ ذاتِ الشاعرِ في همِّ عشيرتِه إلى إعلاءِ شأنِ هذه الذاتِ الشاعرةِ فوقَ العصبيّةِ القبليةِ ، مما دفَعَ قبائلَهم إلى طردِهم وإقصائهم والتَنكُّرِ لهم فيمـا يشبهُ الطردَ من رحمةِ الكنيسةِ أو المعبدِ اليهودي Excommunication الذي عرفَتْهُ القرونُ الوُسطَى. ولقد كانت هذه النغماتُ الذاتيةُ الشاردةُ في جَوْقَةِ الشعرِ العـــربيِّ براعـــمَ واعدةً بمستقبلٍ زاهرٍ لفنونِ الأدبِ العربيِّ قاطِبةً. وربّما أتاحت للشعرِ التمثيليِّ الـــذي ابتكرَتْهُ اليونانُ ، وجَهِلَتْهُ العربُ ، أن يأخذَ نصيبَه من اهتمامِ الشاعرِ العربيِّ في صـــدرِ الإسلامِ أو العصورِ المتأخرةِ منه فيما نقَلَت العربُ واقتبسَت من اليونانِ وأضافَت إليـــه وطوَّرَت ، ثمَّ صَدَّرَت من علـــومٍ وفُنونٍ ومعارفَ .

---

[1] شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص ١٩٥ .

ولكَ أن تتخيلَ المُنحَنَى البيانيَّ لنموِّ فنٍّ عربيٍّ كانت هـــذه إرهاصاتِـــه المبشّـــرةَ، إذكانت الملَكَةُ الشعريةُ في الجاهليةِ بعدُ مترّهةً عن الأغراضِ ، ذاتَ كبرياءٍ مَصـــونٍ ، وأَنَفَةٍ لا تُخْفِضُ لغيرِ وجهِ الفنِّ جَناحاً من الذُّل. إلا أن تصاريفَ الدهرِ ما عَتَّمَـــت أن حَوّلَت دفّةَ الحكمِ في الإسلامِ إلى قبضَةِ المُلكِ العَضوضِ للأُمَوِيّين . و قد كانت هـــذه آفةَ الدولةِ الإسلاميةِ إذ ابتُلِيَتْ بالطُّلَقاءِ – وهم أســـوأُ المســـلمين – مـــن البيـــت العبشميِّ[1] الذين عَمِلوا جاهدينَ على تكريسِ المجتمعِ الأبويّ، فبَطَشوا وعَصَفوا بكـــلّ من سَوّلَت له نفسُه أن يمالئَهم ، فترَعرَعَ الخوفُ والنفاقُ في نفسِ الشعبِ العربيِّ، بعـــد أن تَقَضّى عصرُ المُروءةِ والنَّخوةِ الذي شَهِدَ أمجادَ الخِلافَةِ الرّاشِدةِ يومَ كانَ أبو بكـــرٍ يدعو المسلمين إلى أن يُعينوه إن أصلَحَ وأن يقوّموه إن أخطأ ، ويومَ لم يجِـــد الفـــاروقُ عُمَرُ غضاضةً في أن يُلَوِّحَ له عربيٌّ بضربِ عنقِه إن تنكّبَ جادّةَ الصّواب .

وقد كانَ عمرُ بنُ الخَطّابِ من خيرِ السّاسةِ الذين تفهَّموا شخصيةَ العربِ ، وسَـــبروا غَوْرَها فطوّعوها للفكرِ الوافدِ عليهم من أقطارِ السماءِ في رسالةِ محمد ، ومن أقطـــارِ الأرضِ التي دانت لهم بعد أن فتَحَها الله عليهم . و يؤثَر عن عُمَرَ أنـــه القـــائل : "إن العرب لا تصلحُ ببلادٍ لا تصلحُ بها الإبل."[2] وبالجملةِ ، إن قلتَ إن الدكتاتوريـــةَ قـــد أتَت على حريةِ الفنِّ عندَ العربِ ، فما جانبَكَ الصّواب.

وحسبُكَ أن تقرأَ لشاعرٍ عظيمٍ ، يكادُ أن يكونَ أميرَ الشعراءِ العربِ في كلِّ العصـــور (إن استثنيْنا أحمد شوقي) ، وهو المتنبي حتى تُصابَ بالإحباطِ والأسَى . فالرجلُ يَشرَعُ في قصيدتِه ، كما هو معتادٌ،مستهلاً بالغزلِ أو الحكمةِ ، فيخلُبُ لُبَّكَ بشاعريتِه الرقيقـةِ الراقيةِ ، وبخيالِه الجامحِ بغيرِ حَدٍّ ، ثم لا يلبثُ أن يفجأَك ويفجعَك بالوثبِ إلى المديـحِ ، فيُخرِجُكَ من الاسترسالِ الجميلِ الذي استحْوَذَ على مجامعِ قلبِك وشعورِك ، ولكنـــه ، ويا للعَجَبِ ، لا يسمحُ لكَ بالإفلاتِ من قبضةِ موهبتِه الخارقةِ ، لأنه يكونُ قد ملَـــكَ عليكَ نفسَكَ إعجاباً وافتتاناً ، فلا تلبثُ أن تتابعَه في مديحِه الذميمِ إلى قلبِكَ حتى نهايـةِ

---

[1] نسبةً إلى عبد شمس بن عبد مناف.

[2] "أبو حيان التوحيدي : الإمتاع و المؤانسة ،تصحيح و ضبط أحمد أمين و أحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت ،صيدا الجزء الثاني ص٦٦

القصيدة ، مُعجَباً على كلّ حالٍ بأخيلتِه وصُوَرِه و ألفاظِه أيما إعجاب ! ثم تراك جالساً إلى نفسِكَ تسائلُها في حَيْرةٍ وأسَف : " أما كان أخلقَ بهذا الشاعرِ الفحلِ أن يستعرضَ هذا الإعجازَ الفنيَّ بأن يَصرِفَهُ إلى غرضٍ آخرَ غيرِ المديحِ والمصانعة ؟!"

وانظرْ إلى خِفّةِ ظِلّه في غيرِ المديح إذ يقولُ :

فَيا لَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْـــنَ أُحِبَّتِي ... مِنَ الْبُعْدِ ماَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَصَائِبِ

(الطويل)

وإلى قولِه العبقريّ :

حَبَبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى ... وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ أَلْتَ وَافِيا

(الطويل)

ألستَ ترى أنّ الأجدَرَ بعملاقٍ كهذا الفنانِ أن يكونَ غَـــزِلاً أووَصّافـــاً للطبيعـــةِ أو للمشاعرِ الإنسانية ؟ أما كان ذلكَ أمتعَ للجمهورِ وأثرَى للأدبِ العالميِّ ، لا العـــربيِّ وحدَه ؟

وقد عَرَفَت فنونُ الغربِ رُعاةَ الفنِّ Les mécènes d'art من أمثالِ أسرةِ ميديتشـــى الإيطاليّةِ ، و فرنسوا الأولِ الملكِ الفرنسيِّ الذي لُقّبَ بأبي الآداب[1] ، ومَن إلى ذلـــكَ من أمراءٍ و ملوكٍ متنوِّرينَ رَعَوْا الموسيقى والشعرَ في بلاطِ ممالكِهم ، و أجزَلوا العطـــاءَ لفنانيهم ، و إنما لوجهِ الفن والحضارةِ لا غير ؛ فلم يقَعْ لنا فيما وَقَعَ من روائعِ الشـــعرِ الأوروبيِّ عملٌ واحدٌ مُتَبَذِّلٌ في التغني بمآثرِ ملكٍ ممدوحٍ أو كبيرٍ سَخِيِّ اليد . فهل كـــان العيبُ في ملوكِ العربِ أم في شعوبِهم ، أم في الشخصيةِ العربيةِ على وجهِ العموم ؟

العاربة – المستعربة[2،3] :

العربُ العاربةُ أو العرباءُ ، كما أسلَفْنا في القسمِ السابقِ ، هم العربُ الخُلّص، وهـــم ، كما يذكر النسّابون ، عَرَبُ اليمنِ بنو قحطانَ الذين يُظَنُّ أنهم من نَسلِ هـــودٍ عليـــه

---

[1] Collection littéraire Lagarde et Michard XVIième Siècle, Bordas, Paris,1985, p.6

[2] أحمد أمين (السابق) ص ٥ – ٨ .

[3] المفصّل في تاريخ الأدب العربي ص ١٠ – ١٤ .

السّلام ، يمتازونَ من سائرِ العربِ بالنقاءِ العرقيِّ ، و يختلفـــون عنـــهم في اللغـــةِ و الحضارة .

أما العربُ المستعربةُ أو المتعرِّبةُ فهم عربُ الشَّمالِ من بنى عدنانَ من نسلِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما السَّلام . ولم تكن العربيةُ لغةَ إسماعيلَ الأصليةَ ، وإنما نطقَ بها لما رَحَـــلَ مع أبيه إبراهيمَ إلى الحجاز ،وتزَوَّجَ من جُرْهُم ، وهى قبيلةٌ يمنيةٌ ، و تعلَّـــمَ منـــهم ، وتكلَّمَ بلسانهم .

وبعدَ انفجار سدِّ مأرب نحو سنة ١١٥ ق.م. نزَحَ القحطانيون إلى الشمال[1] ، و قصـــدَ بنو ثعلبةَ بنِ عمرو يثربَ ، وكان من بينهم الأوسُ والخزرَجُ ؛ ونزَلَت خزاعـــةُ مكـــةَ وأجْلَت جُرهُماً عنها ؛ و نزَلَ جفنةُ بنُ عمرو وبنوه الشامَ وسُمّوا غساسنةً نســـبةً إلى ماءٍ هناك يُدْعى غسّانَ ؛ ونزلت قبيلةُ لخمِ بنِ عدِيٍّ الحيرةَ بالعراق ، ومنها نصرُ بـــنُ ربيعةَ أبو الملوكِ المناذرةِ ؛ وحلّت طَيىء في جَبَلَيْ أجا و سَلْمَى المعروفيْن اليـــومَ بجبـــل شَمَّر.

وهكذا اختلطَ الجنوبيونَ بالشماليينَ بالجوارِ ، والمصاهرةِ ، والحروب، والتجـــارة ؛ إلا أن هذا الامتزاجَ لم يُفلِحْ في إذابةِ البغضاءِ ، والتنافرِ بينَ السُّلالتين حتى بعدَ ظـــهورِ الإسلام .ويذكر النسابون أن قحطانَ أبا اليمنِ قد نَسَلَ شَعبيْن عظيميْن هما كَـــهْلان وحِمْيَر ، وأن عدنانَ نَسَلَ كلاً من ربيعةَ و مُضَر .

وتفرَّعَ من شعبِ كهلانَ فروعٌ عدةٌ أشهرُها طيّىء ، و هَمْدان ، ومَذْحِج ، و عاملـــةُ ، و جُذام . وتفرَّعَ من شعبِ حميرَ قُضاعة ، وتَنوخ ، وكَلْـــب ، وجُهَيْنَـــة ، وعُـــذْرة المشهورةُ بالعشقِ العفيف .

أما ربيعةُ فأشهرُ قبائلِها أسد ، ووائل (و منهم بكر و تغلب طرفا حـــربِ البســـوسِ الشهيرة) ؛ وأما مُضَر فأشهرُ فروعِها قيْسُ عَيْـــلان ،

وتميم ، وهُذَيْل ، وكِنانة .

---

[1] حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البولسية ، لبنان ، الطبعة الثانية عشرة ص ١٣.

القحطانيون [1] :

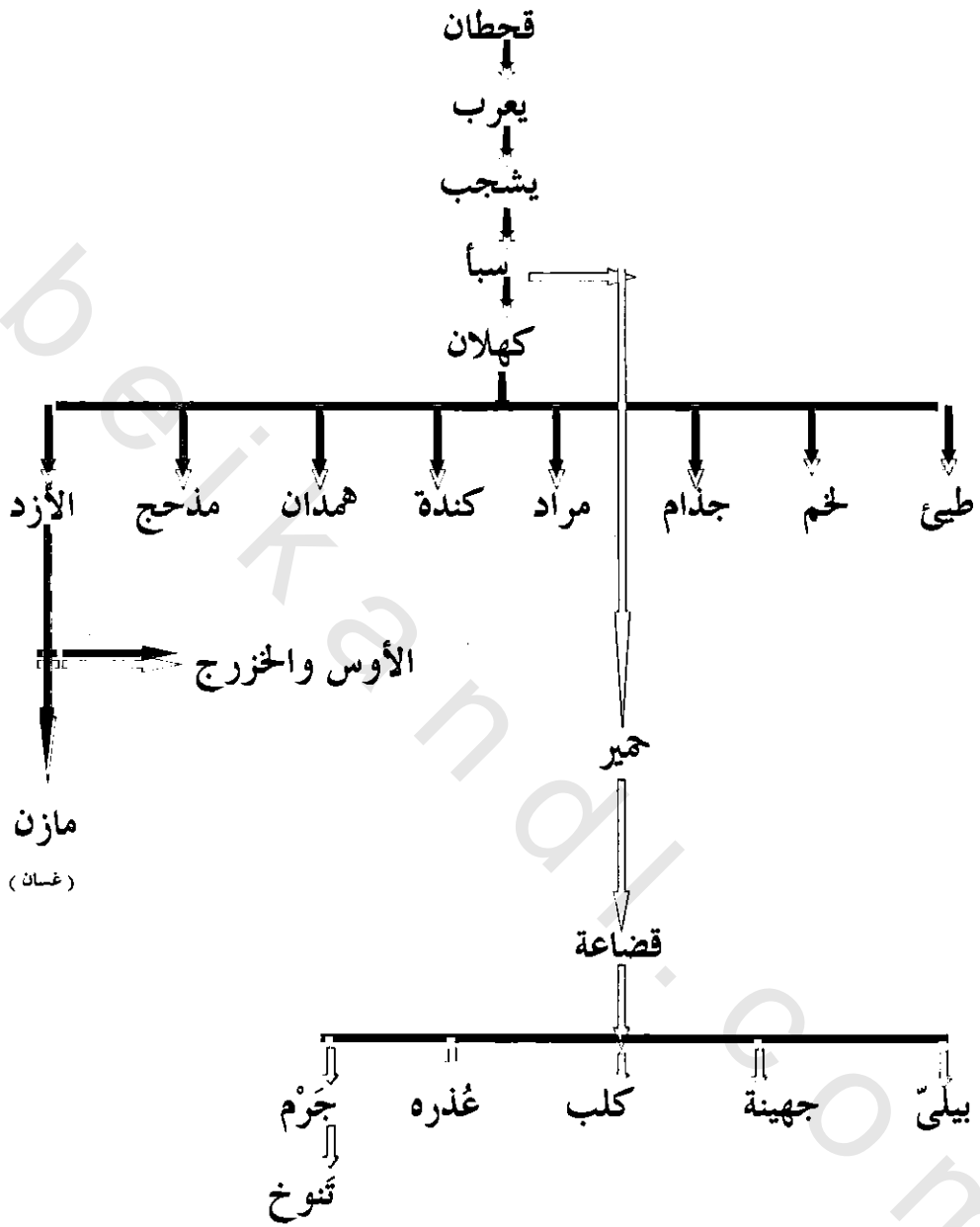

[1] المفصل فى تاريخ الأدب (السابق)

obeikandl.com

العدنانيون ١ :

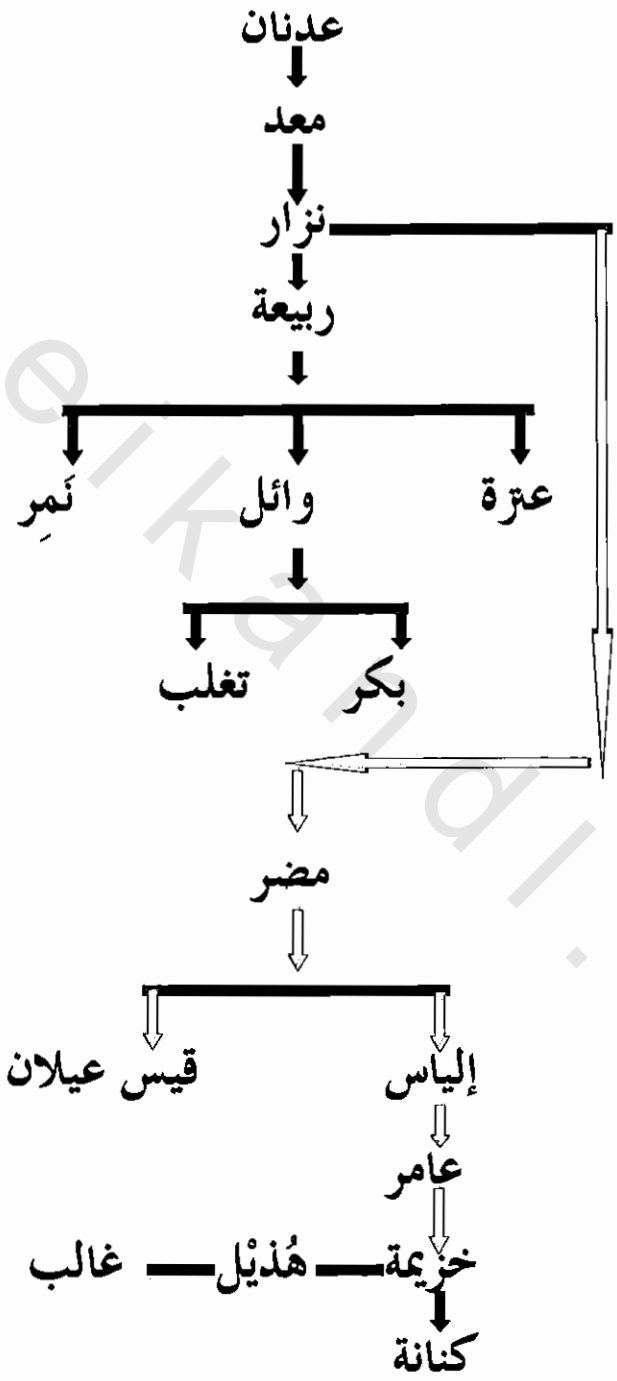

[1] د.حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام (بتصرّف) الطبعة الأولى ، ص ٨١.

obeikandl.com

obeikandl.com

ممالكُ وأُمَمٌ :[1]

كانت الجزيرةُ العربيةُ في القرونِ الأولى بعدَ ميلادِ المسيحِ بمثابةِ ما يسمّيهِ العسكريونَ في عصرِنا بالمِنطَقَةِ الآمنةِ المتروعةِ السلاحِ لأنها كانت تَفصِلُ بينَ قوّتَيْنِ عُظْمَيَيْنِ تقاسمتا مناطقَ النفوذِ في زمانِهما: إمبراطوريّةِ الفُرسِ شرقيَّ الجزيرةِ ، وإمبراطوريّةِ الرومِ غربيَّها. وقد اقتضىَ اتزانُ القوىَ وتعادُلَ الكِفّتَيْنِ في ذلك النظامِ الثنائيِّ الأقطابِ Bipolar system عدمَ الاكتفاءِ بالمانعِ الصحراويِّ الشاسعِ الفاصلِ بينَ حدودِهما ، والذي لم يُفلِحْ في صدِّ الأعرابِ عن الإغارةِ عليهما الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَة . فلم يكنْ لنظريةِ الأمنِ بينَ الدولتين بُدٌّ من تكريسِ العمقِ الإستراتيجيِّ لكلٍّ منهما بإقامةِ دولةٍ تابعةٍ تكونُ خَطَّ الدفاعِ الأوّلِ الذي يقيها عادياتِ جارتِها الكبرىَ من جهةٍ ، وعادياتِ الأعرابِ من جهةٍ أخرى .

واقتضَت طبيعةُ الأمورِ أن تكونَ هاتانِ الدولتانِ من عربِ الجزيرةِ ، وإلاّ لكانتا مجرَّدَ جيبٍ فارسيٍّ في الشرقِ ، وجيبٍ رومِيٍّ في الغربِ ممتدَّيْن فى البادِيةِ بغيرِ جدوى ، وربما أضرّتا باستقرارِ القطبين بالتقريبِ بين نحورِهما ، بما يُيَسِّرُ لكليهما سرعةَ الكرِّ على الآخرِ ، والنَيْلِ منه . ثم إنه لم يكنْ مما يتفقُ ومنطقَ الأمنِ أن يكونَ عربُ هاتينِ المملكتينِ التابعتين من عُرْبانِ البادِيةِ الهَمَجِ ، و إنما من أرقى شعوبِ العربِ حضارةً ، ولو كانت حضارةً دَثَرتْ في مهدِها الأوّلِ فيمن عَصَفَ به الدهرُ من أُمَمٍ . لذلكَ اصطفىَ الفرسُ المناذرةَ اللّخميّين[2]، وهم من عربِ اليمنِ فى الأصل، واصطفىَ الرومُ الغساسنةَ[3]، وهم يمنيّو الأصلِ أيضاً ، لإقامةِ الدولتينِ المانعتينِ . وكان ولاءُ المناذرةِ للفرسِ ، وولاءُ الغساسنةِ للرومِ ولاءً مُزْدَوِجَ الصِّبغة ، إذ كان سياسياً و دينياً فى آنٍ واحدٍ ، حيثُ كانت عَلاقةُ كلِّ قُطبٍ بتابعِه أشبهَ بعلاقةِ الإقطاعيِّ بالمُقْطَعِ التابعِ له suzerain – vassal القائمِ على حمايةِ حدودِه و مصالحِه.

---

[1] د. شوقي ضيف (السابق) ص ٤٠ – ٤٩

[2] من قبيلة لَخْم من عرب الحيرة.

[3] من قبيلة مازن .

وتُعَدُّ أيامُ الحارثِ بنِ جَبَلةَ أزهىَ عصورِ الغساسنة ، إذ امتدَّت مملكتُهم فى عـهدِه من البتراءِ (البطرا) شرقىَّ الأردن إلى الرّصافةِ شمالىَّ تَدْمُر المشهورةِ بملكتِها زنوبيـا (الزّبّاء) التي ثارت على الرومانِ قبلَ عهدِ الحارثِ بنِ جبلةَ بزمـن . وقـد اعتَنَـقَ الغساسنةُ النَّصرانيةَ منذُ القرنِ الرابعِ الميلاديّ ، و أقنَعَ الحارثُ الرومانَ بتعيينِ يعقـوب البرادعىّ أسقُفاً على الكنيسةِ المونوفيزيتية[1] السوريةِ ، ثم لم يَلبَثْ أن شقَّ عصا السـولاءِ الدينىِّ للرومِ باعتناقِه المذهبَ المونوفيزيتىَّ المخالفَ لعقيدتهم ، فقطعـوا عنـه المعونـةَ والتأييدَ ، ثم صالحوه ، ثم ما عَتَّموا أن اعتقلوهُ و نَفَوْهُ إلى صقليةَ في أواخـرِ القـرنِ السادسِ الميلادي.

ومنذُ ذلكَ التاريخِ تمزّقَت دولةُ الغساسنةِ كلَّ مُمَزّق ، وكانَ آخِـرَ ملوكِـهم جَبلَةُ بنُ الأيْهَمِ الذي عاصَرَ الفتوحَ الإسلاميةَ ، وحاربَ فى صفوفِ الرومِ ، ثم أسـلَمَ وعادَ فتنَصَّرَ فى عهدِ عمر بنِ الخطاب ، ورَحَلَ إلى بيزنطة[2] .

أما المناذرةُ اللخميّونَ فقد كانوا من عربِ العراقِ المنحدرينَ من أصولٍ يمنيةٍ كمـا أسلفنا، وقد نصَّبهم الفرسُ الساسانيون على الحيرة ، وهى تحريـفٌ لكلمـةِ حرتـا السريانيةِ بمعنى المخيَّم أو المعَسكَر ، و كانت مِنطَقَةً خِصبةً يرويها الفُرات . و يقـال إن كِسرَى الفرسِ سابور هو الذي نصَّبَ عمروَ بنَ عدىٍّ مَلِكاً أوّلَ للمناذرةِ في القـرنِ الثالثِ الميلادي ، وهو ابن أختِ جَذيمةَ الأبرشِ أشهرِ الملوكِ الأسطوريين بهذه المنطقـةِ قبل قيامِ دولةِ المناذرة. وكان جذيمةُ ، فيما يتناقلُ الرُّواةُ ، معاصراً للزبّاء (زنوبيا) التي وَرَدَ ذكرُها من قبل .

---

[1] المونوفيزيتية Monophysitism في المسيحية مذهب اليعاقبة إلى أن لاهوت المسيح و ناسوته طبيعة واحدة ،و هو فى عنصرُيْه أقنوم واحد. وذلك بخلاف مذهب النساطرة (نسبة إلى الكاهن نسطوريوس) إلى أ ن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة هى الوجود و العلم و الحياة ليست زائدة على ذاته ، و لا هى هو، و أنّ فى المسيح طبيعتين متمايزتين.

[2] شوقي ضيف (السابق) .

وقد كَشَفَ الأثريون بِمنطَقَةِ النمارةِ نقوشاً على شاهدِ قبرٍ لأحدِ ملوكِ المناذرةِ يُدعى امرأَ القَيْسِ[1] (ابنَ عمروِ بنِ عَدِيّ) ، وهي أقدمُ كتابةٍ بالخطِّ العربيِّ الأولِ ، يؤرَّخُ لها بسنة ٣٢٨ م ، وتشفّ أحرُفُها عن أصلِها المأخوذةِ عنه و هي الكتابةُ النَبطِيّةُ .

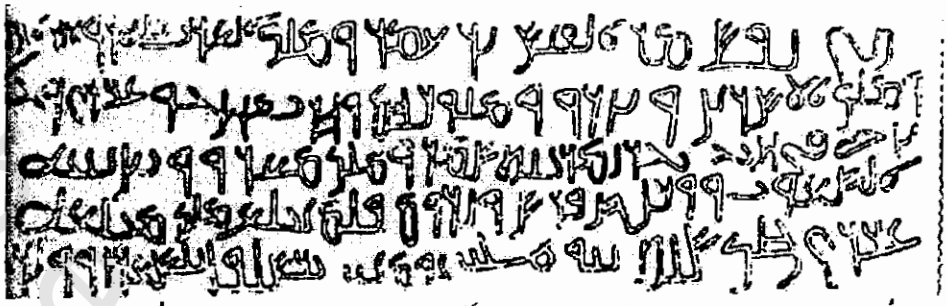

نقوشُ النمارة (٣٢٨ م) و هي قصرٌ كان للرومِ في الحَرّةِ الشرقيةِ من جبلِ الدروزِ ، و قد وُجدت على قبرِ امرئ القيسِ بنِ عمروِ الذي كان يَدينُ بالولاءِ للفرسِ و الرومِ معاً ، أما مَن خلفوه فقد دانوا بالولاءِ للفرسِ وحدَهم . و يُلاحَظُ على الكلمةِ الخامسةِ في الترتيبِ بالسطرِ الأولِ أنها كلمة "بر" النبطية التي تعادلها كلمةُ "بن" أى ابن العربية . و قراءة السطر الأول هي : "هذا ضريحُ امرئ القيسِ بنِ عمروِ مَلِكِ العربِ كلِّهم الذي اعتصب بالتاج إلخ...

ومن أشهرِ خُلَفاءِ امرئ القيسِ النعمانُ الأعورُ أو السائحُ الذي شيَّدَ قصْرَى الخَوَرْنَقِ و السّدير ، وقصتُه مع سِنِّمار الذي صمَّمَ له الخورنقَ معروفةٌ ، وجرَت مجرى الأمثالِ عندَ العربِ في قولهم "جزاء سنّمار".

و كما خَرَجَ الغساسنةُ على الولاءِ الدينيِّ للرومِ خَرَجَ المناذرةُ على الفُرسِ في عهدِ المُنذِرِ بنِ ماءِ السماءِ (نحو ٥١٤ – ٥٥٤ م) الذي ساءت علاقتُه بقُبّاذ ملكِ الفرسِ فعزلَه ، إذ أرادَ أن يَفرِضَ على المناذرةِ الديانةَ المزدُكيةَ التي اعتنقها ، و اتخذها ديناً رسمياً لدولةِ الفرس . ثم خَلَفَ قُبّاذَ كِسرى أنوشِروان الذي كان يُبغِضُ[2] المزدُكِيّةَ فأمَرَ المنذرَ على الحيرةِ ثانيةً، وخاضَ حروباً مع الحارثِ الكندىّ أميرِ كِندةَ وأبنائه ، انتهت بالقضاءِ عليهم جميعاً . وقد أبلَى المنذرُ بلاءً حسناً في الحروبِ التي شنَّها ضدَّ الرومِ والغساسنةِ حتى أبرَمَت بيزنطةُ مع فارس معاهدةً سنةَ ٥٣٢ م أدّى بمُقتَضاها الرُّومُ للمُنذِرِ ما أدّوْهُ للفُرسِ من أموال . وتُحاكُ الأساطيرُ حولَ هذا الملكِ اللخميِّ ، فيُقالُ

---

[1] هذا بخلاف امرئ القيس الشاعر الذي أتى بعد ذلك بزمن طويل .

[2] بَغَضَ يَبغُضُ ، وأبغَضَ يُبغِضُ : كلاهما صحيح .

إنه كانَ رجلاً مضطَرِبَ المِزاجِ تتناوبُه نوبةُ نعيمٍ في اليومِ ، فما تطلُعُ عليه شمسُ اليومِ التالي حتى تنالَ منه نوبةُ البؤس . و كان القتلُ أيسرَ شيءٍ عليه في نوباتِ بؤسِه ، فيُحكَى أنه قتَلَ نديمَيْنِ له[1] و هو ثَمِلٌ، وكان من سوءِ طالعِ الشاعرِ عَبيد بنِ الأبرصِ أنه أدركَهُ في يومٍ من أيامِ بؤسِه فقتَلَه . وظلَّ المنذرُ يحاربُ الغساسنةَ إلى أن قُتِلَ في يوم حليمةَ المشهورِ في أمثالِ العربِ : "ما يومُ حليمةَ بسرٍّ".

وخَلَفَهُ ابنُه عمروُ بنُ هندٍ (٥٥٤ –٥٦٩ م) ، الذي كانت العربُ تُلَقّبه بالمُحَرِّقِ لأنه بَرَّ بنذرٍ له في يومِ أوارةَ باليمامة ، و أحرَقَ مائةَ رجلٍ من تميم . و قد كانت الحيرةُ تحتَ ولايتِه مركزاً أدبياً ذا خطرٍ ، اختلَفَ إليه الكثيرُ من الشعراءِ ، منهم عمروُ بن قميئةَ ، و المُسيَّب بن عَلَس ، والحارثُ بنُ حِلِّزةَ ، و عمرُو بنُ كُلثومٍ التغلبيُّ. ويُقال إن ليلَى أُمَّ عَمرِو بنِ كلثومٍ تعرّضَت لشيءٍ من التحقيرِ والمَهانةِ في بلاطِ عمروِ بنِ هندٍ، فما كانَ من ابنِ كُلثومٍ إلا أن انقضَّ عليهِ فقَتَلَه.

ومن أواخرِ ملوكِ الحيرةِ النعمانُ الثالثُ بنُ المنذرِ الرابعِ ، وكُنْيته أبو قابوس (٥٨٠ – ٦٠٢ م)، وهو أولُ من تنصَّرَ من ملوكِ الحيرةِ الوثنيّين ، وامتدَّ سلطانُه إلى البحرَيْنِ وعُمان .وقد وَسِعَ بلاطُ ملكِه طائفةً من شعراءِ الجاهليةِ مثلَ أوسِ بنِ حَجَر، والمُنَخَّلِ اليَشْكُرِيِّ ، ولَبيدِ بنِ ربيعةَ ، وغيرِهم . ولم يكنْ النعمانُ بالرجلِ اللَّيِّنِ العريكةِ الذي يُصادفُ هوىً لدَى من يُفتَرَضُ أنه حامٍ لحدودِ دولتِهم ، وأمينٌ على مصالحِهم ، فاستدرجَه كِسرَى الثاني إلى حاضرةِ الفرسِ وفَتَكَ به، حتّى لَيُقالَ إنه رَمَى به تحتَ أرجُلِ الفِيَلَةِ فمزّقته إرَباً ؛ ثم ولّى على الحيرةِ إياسَ بنَ قبيصةَ الطائيَّ ، وهو من غيرِ بيتِ النعمان . وثارَت قبيلةُ بكرٍ بالفرسِ ، واقتصَّت منهم لمقتلِ النعمانِ وسحقَتهم شرَّ سَحْقَةٍ في يومِ ذي قارٍ الأشهَر .

وفي شمالِيّ نجدٍ قامت إمارةٌ ثالثةٌ بينَ الحيرةِ و الغساسنةِ هي إمارةُ كِنْدة، وينتمي قومُها أيضاً إلى عربِ الجنوبِ ، و قد بَقِيَتْ شُعبَةٌ منها بحَضْرَمَوْت إلى أن ظهرَ الإسلام. وأشهرُ ملوكِها حُجْر الذي اشتعَلَ في عهدِ خلفِه عمروِ أُوارُ الحربِ بين بَكرٍ و تَغلِب ،

---

[1] هما الغَرِيّان اللذان يُذكَران في أشعار العرب .

وهى حربُ البَسوسِ التي دامت أربعينَ عاماً ، و بدأت بقتلِ جسّاس بن مُـرَّةَ كُليباً انتقاماً لِشاةِ البسوسِ خالةِ جسّاس ، وكان كُلَيْبٌ قد رمى الشاةَ بسهمٍ في ضَرعِها فأرداها قتيلة .

وإلى كِندة ينتمي أمير الشعر الجاهلي امرؤ القيس الذي كان أبوه آخرَ ملوكِها .

أما في الجنوبِ الغربيِّ لجزيرةِ العربِ بأرضِ اليمنِ ، فقد عاصرَت دولةُ الحميريّينَ ممالكَ غسّانَ ولخم و كِندة. وتاريخُ اليمنِ موغلٌ في القِدَمِ مقارناً بتاريخِ سائرِ الجزيرةِ العربيةِ . فقد وُجدت نقوشٌ بابليةٌ ترجعُ إلي سنة ٢٤٠٠ ق م تُسَجِّلُ هزيمةَ ملكِ المعينيينَ على يدِ نارام سِن الحاكمِ البابليّ . وكانت ماجانُ (معين) عاصمةَ المملكةِ المعينية ؛ وقد عُرِف خمسةٌ وعشرونَ من ملوكِها من نقوشٍ عربيةٍ يرجعُ تاريخُها إلى سنةِ ٨٠٠ ق م . و يسجِّلُ نقشٌ آخرُ يرجعُ إلى سنةِ ٢٣٠٠ ق م قيامَ مملكةٍ أخرى باليمنِ هي مملكةُ سَبَأ ، وعاصمتُها مأرب. وقصّةُ ملكتِها بلقيْس مع النبيِّ سليمانَ مشهورةٌ في القرآنِ ، و قد كانت رحلتُها إلى سليمانَ نحوَ سنةِ ٩٥٠ ق م .

ويبدو أن كارثةَ انهيارِ سدِّ مأرب قُربَ نهايةِ القرنِ الثاني قبلَ ميلادِ المسيحِ (١١٥ق م) قد أَوْدَت بمُلكِ سبأ إذ هاجَمَتها مملكةُ حمير وحكمت بلادَ اليمنِ وسيطرت على طريقِ القوافلِ التجارية ، مما أثارَ حَنَقَ أغسطس الذي جَرَّدَ فَيْلقاً بقيادةِ إليوس جاللوس Aelius Gallus للاستيلاء على مأرب . إلا أن الأدلاّء العربَ أضلُّوا الجيشَ الرومانيَّ في مجاهلِ البادية حتى أبادَهُ القيظُ والظمأُ والمرض .ولكنّ جيشاً رومانياً آخرَ استولى على عَدَن ، وسيطرت رومةُ بذلكَ على التجارةِ بين مصرَ والهندِ (و هذا ما فعلته بريطانيا تماماً في العصر الحديث).[1]

وفي القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ عَبرَ الحِمْيريونَ البحرَ الأحمرَ ، واستعمروا الحبشةَ فمزجوا دماءَ الأحباشِ بالدماءِ الساميّة ، و تلقّت الحبشةُ المسيحيةَ من مصرَ وبيزنطة . وبلغَت سفنُهم التجاريةُ الهندَ وسرنديبَ، وكانت سبعُ ممالكَ صغرى تَدين بالسيادةِ للنجاشي.[2]

---

[1] ويل ديورانت : قصة الحضارة (السابق) مجلد ٤ ، ج ٢ ، ص ٨ – ١٠

[2] Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, vol. 4 p. 322

و قد اعتنق ذو نُواسٍ مَلِكُ الحميريينَ اليهوديةَ واضطَهَدَ المسيحيينَ اضطـــــهاداً بـــالغَ الشراسة . و قد أوردَ الذِّكرُ الحكيمُ قصةَ أصحابِ الأخدودِ وهو المحرقةُ الكبرى الـــتي نصبَها ذو نواسٍ للمسيحيين ، وأبادَهم فيها .و لما استغاثَ المضطهَدونَ في اليمنِ ببـــني دينِهم الأحباشِ خَفّوا إلى غوثِهم و هزموا ملوكَ حِمْيَر سنةَ ٥٢٢ م ، و أجلسوا أســـرةً حبشيةً على عرشِ البلاد . و تحالفَ جوستينيان إمبراطورُ الرومِ مع الدولةِ الجديـــدةِ ، إلا أن الفرسَ خلعوا الأحباشَ عن مُلكِ اليمنِ ، وأقاموا بها حكماً فارسياً ســنةَ ٥٧٥ م لم يلبَثْ أن سَقَطَ بعدَ نحوِ ستينَ عاماً حينَ فتَحَ المسلمونَ بلادَ الفرس [١] .

[١] ويل ديورانت (السابق) .

obeikandl.com

الفصلُ الثاني

المَوْلِد

obeikandl.com

obeikandl.com

اللغات السامّية[1] ؛[2] :

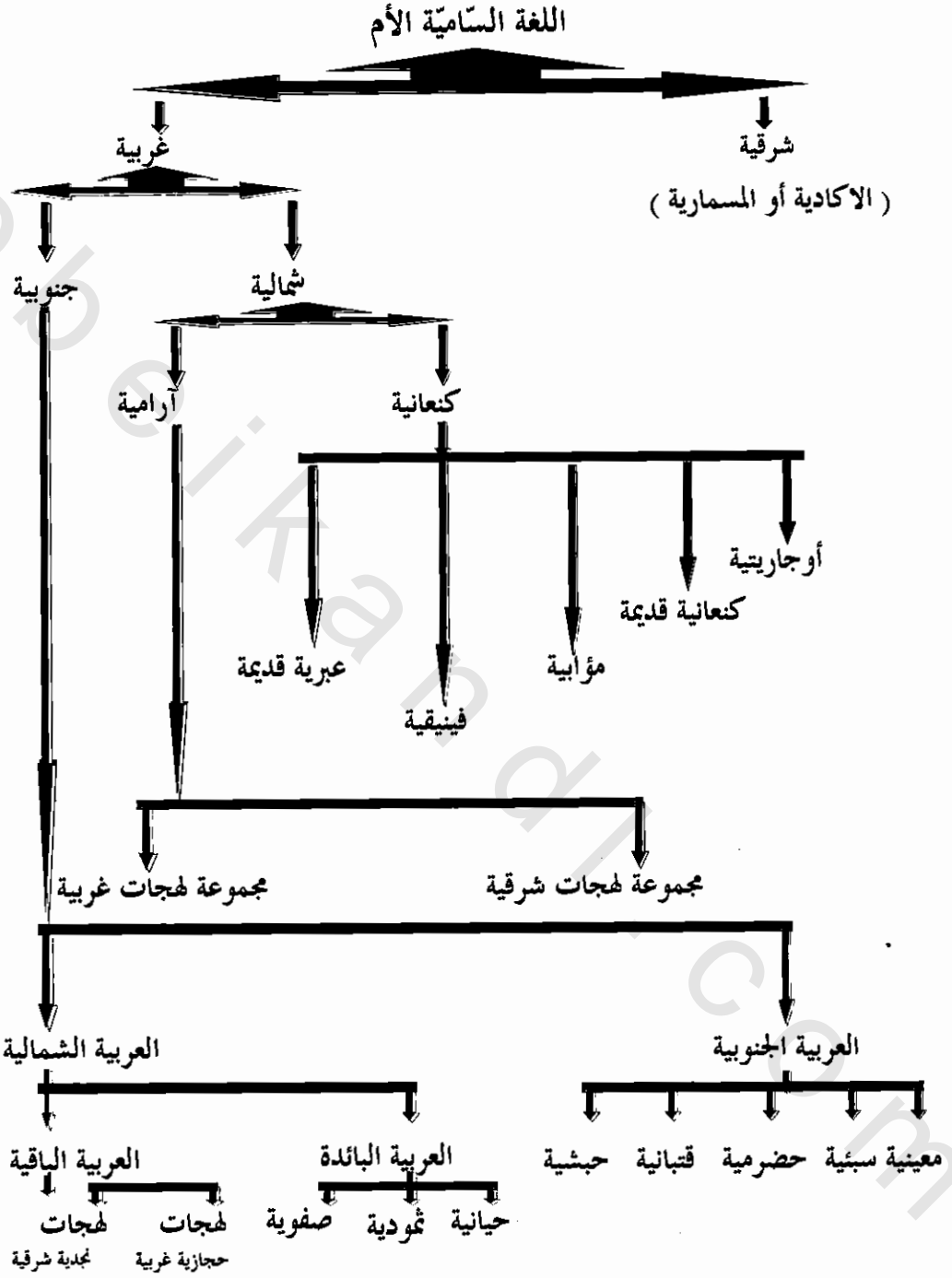

[1] د حلمى خليل : مقدمة لدراسة فقه اللغة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩ص ١٤٤

[2] د . صبحى الصالح : دراسات فى فقة اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٧

obeikandl.com

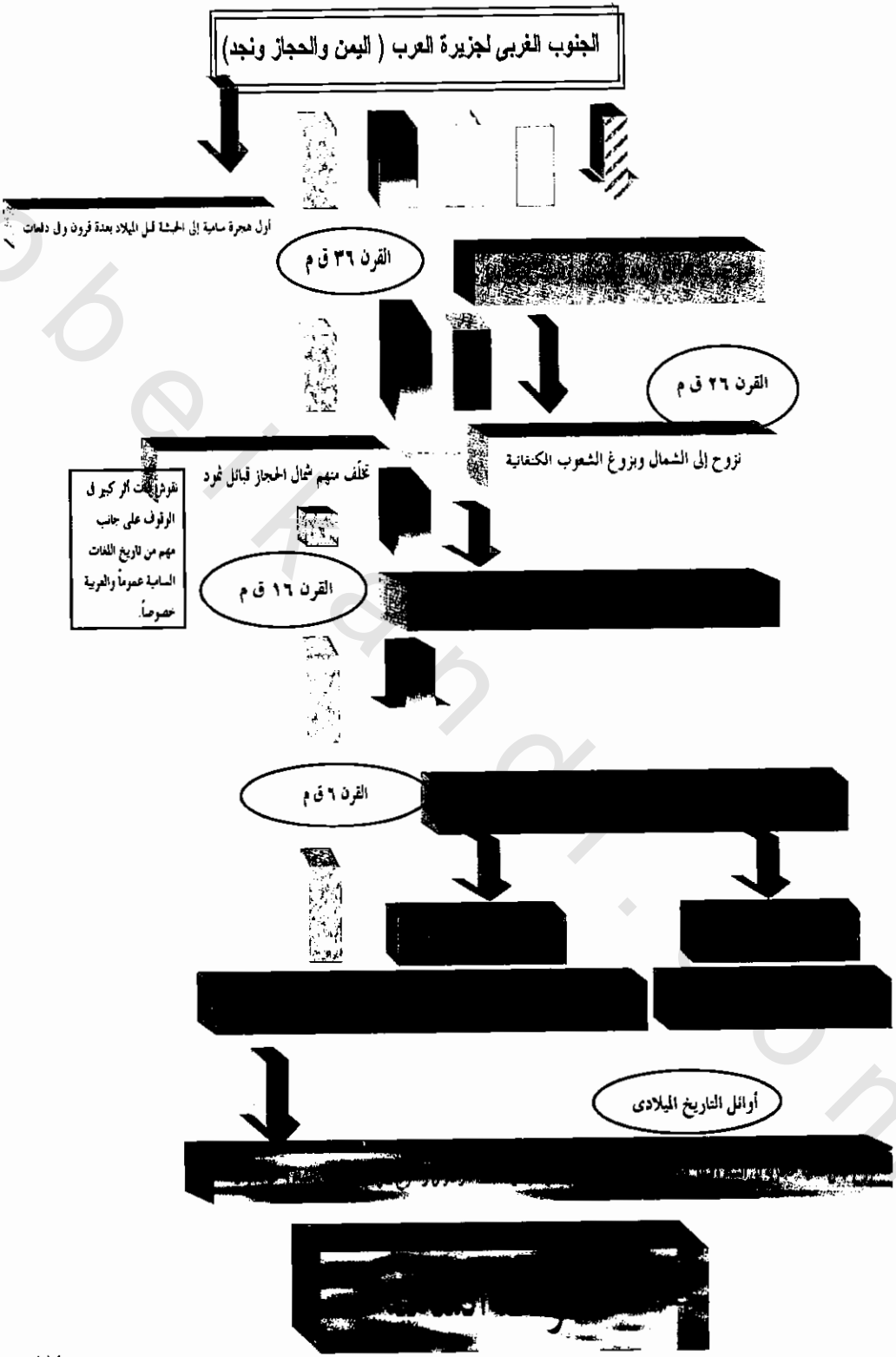

obeikandl.com

obeikandl.com

يُعَدُّ العلاّمةُ شلوتسر Schlozer الألمانيُّ أوّلَ من أطلقَ لفظَ "ساميّ" على شعبٍ واحدٍ، من وِجهةِ نظرِه ، ينتظمُ السوريينَ و البابليينَ و العِبريينَ والعرَب ، ويقولُ نصّاً: "منَ البحرِ المتوسطِ إلى الفرات ، ومن أرضِ الرافديْنِ حتى بلادِ العربِ جنوباً ، سادَت، كما هو معروفٌ ، لغةٌ واحدة ، ولهذا كانَ السوريّونَ والبابليّونَ والعبريّونَ والعَرَبُ شعباً واحداً ، وكان الفينيقيّونَ (الحاميّونَ) أيضاً يتكلمون هذه اللغةَ التي أوَدُّ أن أُسَمّيَها اللغةَ الساميّة."[1]

ويستندُ شلوتسر في اقتراحِهِ هذه التسميةَ إلى الإصحاحِ العاشرِ من سِفْرِ التكوينِ التوراتيِّ الذي يوردُ للنبيِّ نوح عليه السلامُ ثلاثةَ أبناء هم سام وحام و يافِث ، كما يوردُ الشعوبَ التي تحدّرَتْ من كلِّ وَلَدٍ منهم ، فأولادُ سام هم عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام ، وقد وُلِدَ لأرفكشاد شيلاشُ الذي أنجَبَ عابراً ، وعابرٌ هذا هو أبو العِبريّين . غيرَ أنه يُلاحظُ أن سِفْرَ التكوينِ قد اعتمدَ في هذا التقسيمِ على الروابطِ السياسيةِ والثقافيةِ والجغرافيةِ أكثرَ من اعتماده على صلاتِ القرابةِ والروابطِ الشعبية[2] ، كما يُلاحَظُ أن هذا الإصحاحَ يُسَجِّلُ الصّلاتِ بينَ الشعوبِ المختلفةِ التي يعرِفُها كاتبُه.[3]

بيْدَ أنّ الأمانةَ التاريخيةَ في أيةِ قراءةٍ للتوراةِ التي بينَ أيدينا اليومَ تقتضينا ، من حيثُ هي من وَضْعِ الوُضّاعِ ، أن نعتبرَها أدباً توراتياً[4] Biblical Literature لا متناً سماوياً كما كانت في أولِ عهدِها.

والمتفقُ عليه بين الباحثينَ اليومَ هو إطلاقُ لقبِ الساميينَ على الشعوبِ الآراميةِ والفينيقيةِ والعبريةِ واليمنيةِ والبابليةِ – الأشوريةِ وما انحدَرَ من هذه الشعوب من نسلٍ.[5]

---

[1] August Ludwig Schlozer : Von den Chaldaern , Repertorium fur Biblische und Morgenlandische , v. 8 , p. 161 , Eichhorn Literature , 1781 .

[2] د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ، ص ٦ .

[3] سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية ، ترجمة د. السيد يعقوب ، الألف كتاب الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٩ .

[4] Encyclopaedia Britannica , 1991, Biblical Literature and its critical interpretation , v.14 p. 754

[5] د. على عبد الواحد وافى (السابق) .

وتنتمي اللغةُ الساميةُ الأمُّ إلى فصيلةِ اللغاتِ الساميّةِ – الحاميّةِ التي تشمَلُ خمسَ لغاتٍ هي الساميةُ والمصريةُ والبربريةُ والكوشيتيةُ والتشادية [١] .

أما اللغةُ الساميةُ فإنها تنشَعِبُ إلى أربعِ مجموعاتٍ لغويةٍ هي :

(١) الشماليةُ الطَّرَفيّةُ Northern Peripheral أو الشماليةُ الشرقيةُ ، وهي تشملُ اللغةَ الأكّاديةَ نسبةً إلى مملكةِ اكّاد التي أقامها سارجون .

(٢) الشماليةُ الوُسطَى Northern Central أو الشماليةُ الغربيةُ ، وتشملُ اللغةَ الكنعانيةَ العتيقةَ والأموريةَ والأوجاريتيةَ والفينيقيةَ والبونية ، والمجموعةَ الآراميةَ ، والسوريةَ القديمةَ والمحدَثة ، والعبرية .

(٣) الجنوبيةُ الوُسطَى Southern Central وتشملُ اللغتين العربيةَ والمَلطيّة .

(٤) الجنوبيةُ الطّرَفيَّة Southern Peripheral ، وتشملُ العربيةَ الجنوبيةَ ولغاتِ شمالِ الحبشة (إثيوبيا) .

اللغات السامية تاريخياً و جغرافياً :[٢]

كانت الأكّاديةُ Akkadian أو المسماريةُ (الإسفينية) Cuneiform بلهجتيْها البابليةِ والأشوريةِ لغةَ بلاد ما بينَ النهريْنِ منذ نحوِ ٣٢٠٠ ق م حتى مطلعِ العصرِ المسيحي . بينما كانت اللغاتُ الساميّةُ الشماليةُ الوُسطىَ (الكنعانية و الأوجاريتية و الأموريةَ) جاريةً على لسانِ أهلِ فِلَسطينَ و فينيقيا وسوريّا وما بين النهريْن ما بينَ الألفِ الثالثةِ والألفِ الثانيةِ قبلَ الميلاد . و منذُ الألفِ الثانيةِ حتى الأولىَ قبلَ الميلادِ كانت الفينيقيةُ – البونيةُ لغةَ فينيقيا و بعضِ جُزُرِ البحرِ المتوسطِ و الشمالِ الأفريقي .

بينما كانت العبريةُ لغةَ فِلَسطينَ منذُ القرنِ الثالث عشرَ ق م إلى القرنِ الثاني الميلادى . و قد أحيَتْها الصُّهيونيةُ في صورةٍ مُحدَثَةٍ حيث أصبحَت اليومَ اللغةَ القوميةَ لنحوِ ثلاثةِ ملايينَ من الإسرائيليينَ الذين استعمروا أرضَ فِلَسطينَ و أقاموا دولةَ إسرائيلَ منذُ سنةِ ١٩٤٨ م .

---

[١] Encyclopaedia Britannica , 1991 , Hamito-Semitic Languages , v. 22 , p. 740 – 748

[٢] op.cit.

أما اللغةُ المؤابيةُ وقريباتها من اللهجاتِ فقد عاشت في الأردنّ في الألفِ الأولى قبلَ الميلادِ ثم دَثَرَت بمثلِ ما دثَرَت اليهوديةُ Ya'udi التي جَرَت على لسانِ شمالِ سـورِيّةَ في القرنِ التاسعِ قبلَ الميلاد.

كما بقيت الآراميةُ على لسانِ أهلِ سوريةَ وما بينَ النهرينِ منذُ القرنِ الرابع عشـر ق م حتى القرنِ الخامس عشر بعدَ ميلادِ المسيح. و ترجعُ أقدمُ نصوصِها المدوّنةِ إلى القـرنِ التاسعِ ق م. و من المثيرِ للعجبِ أنها وُجِدَت في جزيرةِ فيلِه (أنس الوجود) بمصـرَ مدوّنةً على البردي في صورةِ عقودٍ و رسائلَ ، و كذلك على الخزَفِ ، و يرجعُ تاريخُها إلى القرنين السادس و الخامس ق م . وقد ذَهَبَ الباحثون في تفسيرِ ذلك إلى أن كتَبَـةَ العقودِ بمصرَ في ذلك العهدِ كان معظمُهم من اليهود ، وكانت لغـةُ اليـهودِ حينئـذٍ الآرامية. كما يُرَجَّحُ أن جزيرةَ أنسِ الوجودِ كان يقطنُها في ذلك العصرِ جاليةٌ يهوديةٌ تتكلّمُ الآرامية. و لا تختلف لغةُ هذه الآثارِ المصريةِ في شيءٍ عن لغةِ بعـضِ أجـزاءِ سِفْرَيْ عِزرا ودانيال. والحروفُ التي رُسِمَت بها تشبهُ الحروفَ العبريةَ المربّعةَ Hebreux carré ، وتُعَدُّ هذه الوثائقُ من أقدَمِ ما وقَعَ لنا من الآثارِ الساميةِ المدوّنة بالمداد[1].

وقد أخذت العربيةُ تقتحمُ على الآراميةِ معاقلَها الواحدَ تِلوَ الآخرِ منـذُ القـرنِ السابعِ الميلاديّ حتى قَضَت نحبَها ، ولكنها لم تزلْ رغمَ ذلكَ لغةَ الحديثِ في ثلاثِ قُرىً هي : قريةُ "معلولةَ" المسيحيةُ الواقعةُ على بعد خمسةٍ وثلاثين كيلومتراً إلى الشمالِ مـن دمشقَ ، وقريتانِ مُسلِمتانِ مجاورتانِ لها هما "جبعدين" و"بخفا". ويُسَمّي العلماءُ لهجاتِ هذه القُرىَ الثلاثِ باسمِ الآراميةِ الحديثةِ الغربيةِ Néoaramien Occidental[2].

وتشملُ اللهجاتُ الآراميةُ كلاً من الآراميةِ القديمةِ والآراميـةِ الإمبراطوريـةِ (اللغـة الرسمية لأشور وفارس ، وآرامية التوراة أو الكلدية)والآراميةِ الغربيةِ بفصائلِها التدمريةِ (البالميرية) و النَبَطِيّةِ والفلسطينيةِ والجليليةِ ، والآراميةِ الشرقيةِ التي تشملُ السـوريةَ والبابليةَ و التلموديةَ والمانديّة.

---

[1] د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ، ص ٦٣

[2] د. على عبد الواحد وافى (السابق) ص ٧٠

أما العربيةُ الفُصحَى (العربية الباقية) التي شَهِدَت النورَ في جزيرةِ العربِ ، و البقي كانت لسانَ قريشٍ، فقد أخذَت تَبسُطُ نفوذَها منذُ القرنِ الخامسِ الميلادي ، ثم لم يلبثْ القرآنُ أن نقّحَها وخَصَّبَ دوحتَها فأينعت ثمارُها ، وحمل قِطافَها الفاتحون إلى مشارقِ الأرضِ ومغاربها حتى أمسَتْ في العصرِ الحاضرِ جاريةً على لسانِ الرُّقعةِ الجغرافيةِ الشاسعةِ الممتدةِ بينَ المحيطِ الهنديّ في الشرقِ والمحيطِ الأطلسيِّ في الغرب ، حيثُ يربو الناطقون بها اليومَ على المائةِ والخمسينَ مليوناً من البشرِ بجزيرةِ العربِ والشمال الأفريقي والأردن وفلسطين ولُبنان وسورية والعراق وبعضِ مناطقِ تركيا و إيران وبعضِ جمهورياتِ الاتحادِ السوفيتيِّ السابق.

أما اللغة المالطيةُ (لغة جزيرة مالطا) فقد انسلخَت عن العربية، وأصبحت لغةً مستقلةً بذاتِها في العصرِ الحاضر.

ولم يُكتَبْ للعربيةِ الجنوبيةِ (السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية) العيْشُ على الألسنةِ إلا في الحِقبةِ المحصورةِ بينَ الألفِ الأولَى قبلَ الميلادِ والألفِ الأولَى بعدَه.

وكان للسبئية اليدُ العليا على شقيقاتها اليمنيات ، وقد وُجِدَت أكثرُ نقوشِها في مِنطَقَةِ العلا بشمالِ الحجاز ، ومنها ما وُجِد بالمناطقِ الشماليةِ المتاخمةِ لأرضِ كنعان . وكانت تُدَوَّنُ بالخطِّ المُسْنَدِ[1] الذي تستندُ أكثرُ حروفِه إلى ما يشبهُ الأعمدة ، و هو خطٌّ هندسيُّ الشكلِ ، لطيفٌ مُنسَّق .

وإليكَ مِثالاً منه مُدَوَّناً بالأحرفِ العربية ثم مُترجَماً إلى لغتِنا المعاصرة :

" بمقم مراهيمو عشتر شرقرن واشمسهو والال همو وباخيل و مقيمت خميس" .

وترجمة هذا الكلام هي :

---

[1] الخط المسند عُرِف منه الصَّفَوِي و الثمودىّ و اللحيانّ و السبئّ (الحِمْيَرِى) و من المسند تفرّع الكندي و النبطي و من الأخير الحيرىّ و الأنبارى ، و منه الحجازىّ (السخي العزبي) . و حلقات سلسلة الخط العربي ثلاث هي الخط المصري القديم (الهيروغليفي و الهيراطيقي و الديموطيقى) و ثانيها الفينيقي ، وثالثها المسند .

"بمجد سيدهم عشتروت المشرقة و آلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحَوْلِ وقوة الخميس (الجيش)" [1] أما الإثيوبيةُ فقد بزَغَت في الألفِ الأولى بعدَ الميلاد بشمالِ الحبشة، وأهم لهجاتها الجعزية و الأمهرية والتيجرية ، والأولىَ هي أكثرُها قِدَماً، ثم حلَّت محلَّـها الأمهريةُ سنةَ ١٢٧٠ م التي باتت منذُ القرنِ التاسع عشر لغةَ الحبشةِ الرسمية[2]

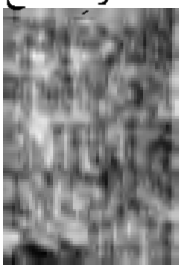

الخط المسند الحميري (المبنى)

[1] د. صبحي الصالح : دراسات في علم اللغة ، ص ٥٤ .

[2] د. صبحي الصالح : (السابق) ص ٥٣ – ٥٤ .

obeikandl.com

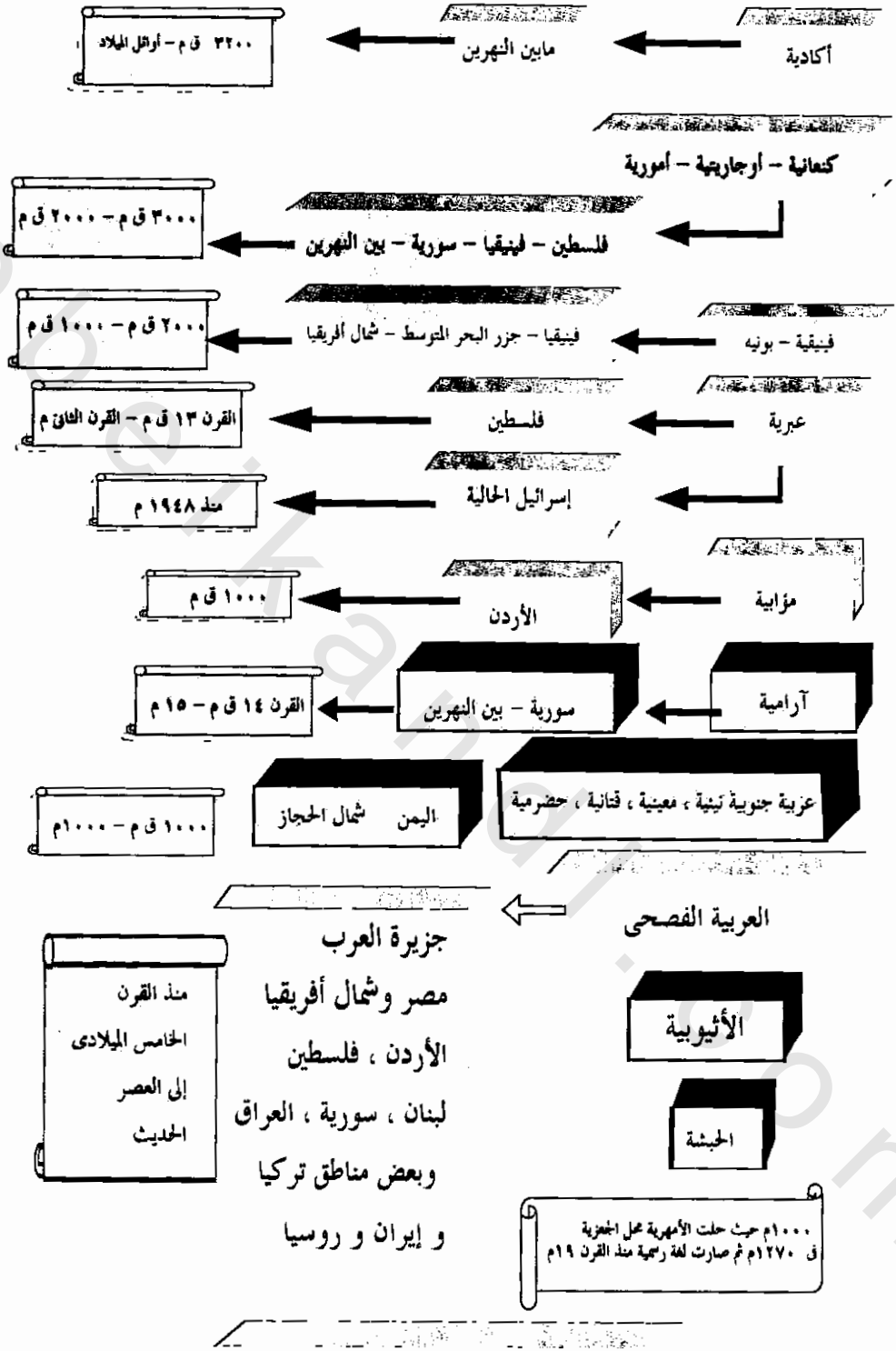

موجز تاريخ اللغات السّاميّة

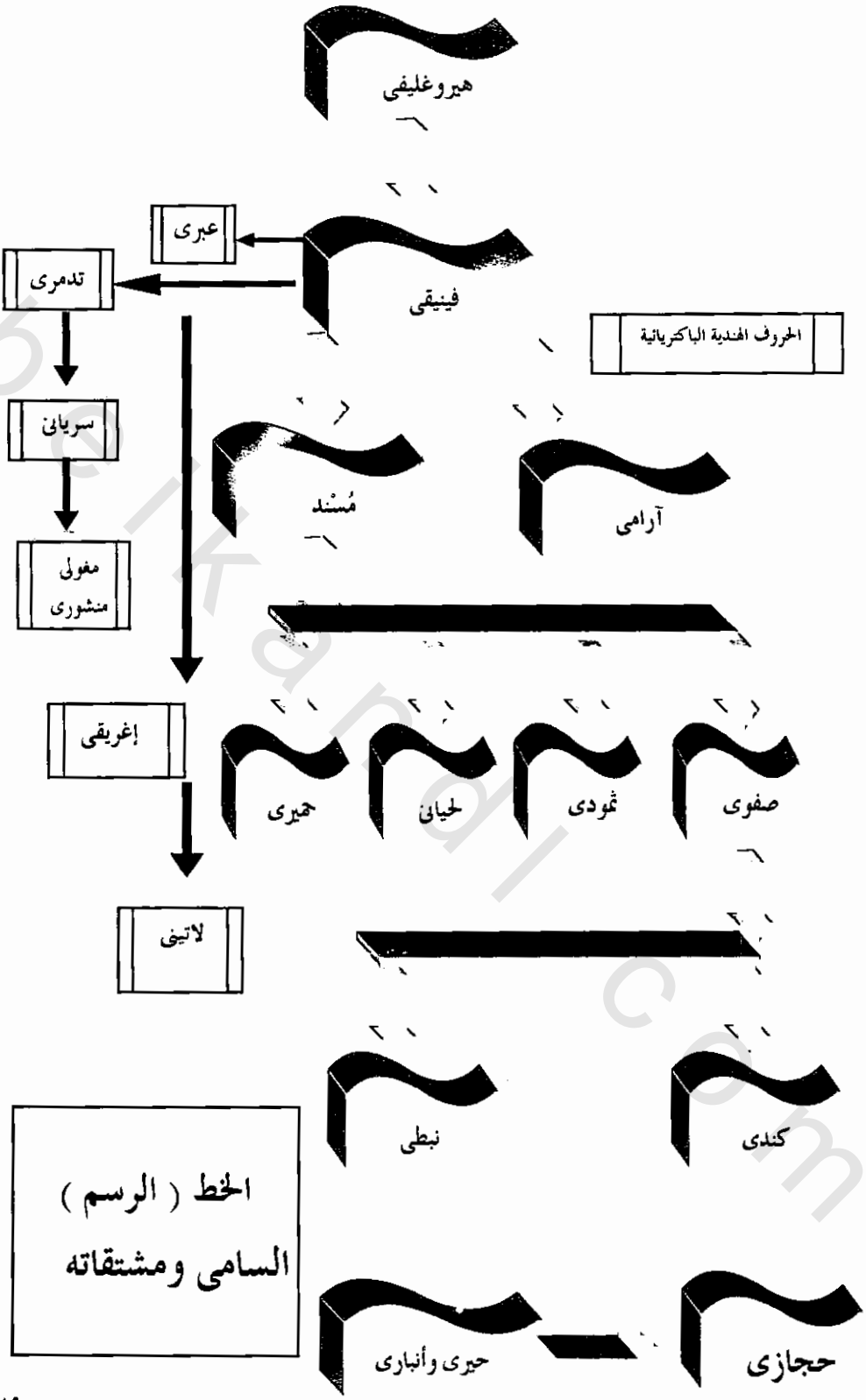

الخط (الرسم) السامى ومشتقاته

obeikandl.com

obeikandl.com

الخلفيةُ التاريخيّةُ للّغات الساميّة [1] :

تختصُّ الدراساتُ الحنجريةُ – التأريخيةُ (النُّطْقُ تأريخيـــة)Glottochronological بعَقْـدِ المقارناتِ بينَ اللُّغاتِ ذاتِ الأصلِ المشترك ، وذلك بمضاهاةِ قوائمَ من المفرداتِ الأساسـيةِ لكلِّ لغةٍ منها بمفرداتِ الأُخرَياتِ من شقيقاتِها . وقد أظهرَت هذه الدراساتُ أن مجموعـةَ اللغاتِ الأكّاديةِ كانت الأولىَ في الانسلاخِ عن اللغةِ السّاميّةِ الأمّ منذ سنة ٣٣٠٠ ق م ، بينما كانت التاليةُ لها في ذلكَ الانسلاخِ مجموعةُ اللغاتِ العربيةِ الجنوبيةِ (السبئية و المعينية و القتبانية و الحضرمية) ، وذلكَ في النصفِ الثاني من الألفِ الثالثةِ قبلَ الميلاد .

وقد ظلّت اللغاتُ الشماليةُ الوُسطىَ (الكنعانية والأوجاريتيـــة والأموريـــة)علـى احتكاكٍ طويلِ الأمَدِ بالجنوبيةِ الوُسطىَ (العربية الكلاسيكية الفصحى) ، حيثُ يُـــؤرِّخُ للانقسامِ اللسانيِّ في المجموعةِ الشماليةِ الوُسطىَ ببداياتِ أو أواسطِ الألفِ الثانيـــةِ قبـلَ الميلاد .

إلاّ أن حَجَرَ العَثْرَةِ الذي لم يُفلِحْ الباحثونَ في إماطتِه عن طريقِ بحثِهم المُضني هو موقـعُ اللغةِ العربيةِ تاريخياً من شقيقاتِها السّاميّات . ويُعْزَى ذلكَ إلى احتكاكِ العربيةِ بلا انقطـاعٍ تاريخيٍّ ، عبرَ قرونٍ عِدّة ، باللغةِ الآراميةِ وما إليها من المجموعاتِ الساميةِ البدَويّة .

وكانت الأكّادية ، التي تحقّقَ الباحثونَ من أنها أقدمُ اللغاتِ الساميةِ انسلاخاً من رَحِـمِ أمِّها ، لغةَ آدابٍ رفيعةٍ نقلَتْها إلينا في نظامِ خَطّي (رَسم) ذي مقاطعَ مسماريةٍ أو إســفينيةِ الشّكلِ Cuneiform تنحَدِرُ من أصل سومريّ . و قد وَصَلَت إلينا مُتونٌ مُدَوّنةٌ من اللغاتِ الساميّةِ الأخرَى ذاتُ أشكالٍ متعددةٍ في رسمِها ؛ فتعَرَّفَ العلماءُ إلى اللغةِ الأموريةِ Amorite من أسماءِ الأعلامِ التي دُوِّنَتْ بها ، أما الأوجاريتية Ugaritic فيتميَّزُ رسمُها بأنه شبهُ أبجـــديٍّ مسماريٍّ ، بيدَ أنه مُنْبَتُّ الصِّلةِ بالمِسماريةِ الأكّادية .

---

[1] Encyclopaedia Britannica, 1991 , Hamito-Semitic Languages , p. 745

وكانَ كنعانيّو فينيقيا يتكلّمونَ في الألفِ الثانيةِ قبلَ الميلادِ لغةً مقطعيةً Syllabic لم يُوَفّق العلماءُ إلى فكِّ شِفْرَتِها بعدُ ، هي لغةُ بيبلوس البَدائيةُ Proto Byblian، بينما تكلّمَ كنعانيّو فِلَسطينَ وشِبهِ جزيرةِ سِيناء لغةً أخرى أَلِفْبائية Alphabetic ما انفكّت طلاسُمها بالمثلِ مُستعصيةً على الحلّ.

أما سائرُ الشعوبِ الساميّةِ فقد استَخدَمَت في غابرِ عهدها ، وإلى العصرِ الحديثِ في معظمِها على وجهِ العموم ، شِبهَ أبجديات Quasialphabets ذواتِ حروفٍ ساكنةٍ Consonants تُعْوِزُها الوسائلُ القاطعةُ حيناً ، أو تلجأُ إلى وسائلَ غيرِ مكتملةِ النضجِ أحياناً ، لتمييزِ الحروفِ اللّينةِ (المتحرّكة ، المُصوّتات[1] Vowels) . وتنحدرُ هذه الأبجدياتُ (الأَلِفبائيات) التي تُعَدُّ أهمّها العربيةُ والعبريةُ من شبهِ الأَلِفْبائية الخطّيةِ الفينيقيةِ ؛ Phoenician linear quasi-alphabet التي تتكوَّنُ من اثنتينِ و عشرينَ علامةً ،والتي اكتُشِفَت للمرةِ الأولى في بيبلوس ،وتماثلُ ظاهرياً المتونَ البروتو–بيبلية Proto-Byblic أو البيبلية البدائية.

ومن الجديرِ بالملاحظةِ أن الأَلِفْبائيةَ الأوروبيةَ بأسرِها تنحدرُ من أصلٍ فينيقيٍّ ، وأن جميعَ الألفبائياتِ الآسيويةِ تنحدرُ من صنوفِ الآراميةِ المشتقةِ من الفينيقية.
ومن صِنْفٍ عربيٍّ جنوبي من صُنوفِ الألفبائية الساميّة الأولى اشتَقّت اللغةُ الحبشيةُ (الإثيوبية) رسمَها الكتابيَّ ذا المقاطع ، الذي لم يزَلْ مستخدَماً إلى اليومِ في اللغاتِ الإثيوبية. أما اللغةُ المالطيةُ فقد انفصلَت برسمِها عن العربية ، و استخدَمَت الأبجديةَ اللاتينية.

وقد حَظِيَت اثنتان من اللغاتِ الساميّةِ المتأخرةِ بشرفِ التنزيلِ السماويّ بلسانِهما ، وهما العبريةُ لغةُ التوراة ، و العربيةُ لغةُ القرآن.
وكانَ للمكانةِ الدينيةِ التي تبوّأَها العبريةُ الفضلُ في بقاءِ هذه اللغةِ في ضميرِ الشعبِ اليهوديّ على الرّغم من أنه قد استُبْدِلَ بها جزئياً لغةٌ عامّيةٌ آراميّةُ المنشأ، جَرَتَ على

[1] تُطلِقُ عليها بعضُ المراجعِ العربيّةِ لعلومِ اللّسانيات تسميةَ " الأصوات اللغويّة الصائتة"

اللسانِ في الحياةِ اليوميةِ بأرضِ فِلَسطينَ في أواخرِ الألفِ الأولى قبلَ الميـــلاد ، و بواكـــيرِ الألفِ الأولى من بعده. فقد حَفِظَها اليهودُ ، وحَرَصوا عليها كلغةِ آدابٍ ، والأدبُ خـــيرُ حفيظٍ على اللغات ، فعاشَت وانتعشَت على ألسنتِهم وفي أقلامِهم حتى بعد أن أخرجَـــهم الملوك الهيلينستيون[1] Hellenistic وفي إثرِهِمُ الرومانُ من فِلَسطينَ فيما بينَ القرنِ الثالثِ قبـــلَ الميلادِ والقرنِ الثاني بعدَه. ثمّ أحيا اليهودُ لغتَهم في صورةٍ عصريةٍ هـــي لغـــةُ الحديـــثِ والكتابةِ في إسرائيلَ اليوم.

أما اللغةُ العربيةُ فإنها تختلفُ تاريخياً عن اللغةِ العبريةِ من عدّة أوجُه .

أولُها أن انتصارَ اللسانِ القُرَشيِّ على سائرِ ألسنةِ العربِ لم يرتَبِطْ بكتابٍ سماويٍّ. فقـــد انعقَدَ اللّواءُ لعربيةِ قريشٍ قبلَ نزولِ القرآنِ بقرنٍ و نصفِ القرنِ على أقلِّ تقديـــر ، مـــن حيثُ إن هذا هو العمرُ المقدَّرُ لأقدمِ ما وَقَعَ لنا من آدابِ العربِ في شعرِهِمُ الجـــاهليّ. على أن آدابَ العربِ كانت بالقطعِ أوْغَلَ من ذلـــك في الزمـــنِ في نـــثرِهم الخَطـــابيِّ ، وقَصَصِهم ، وسَجْعِ كُهّانِهم ، والإرهاصاتِ الأولى لشعرِهم مما لم تصُنْهُ حافظـــةُ الـــرّواة والناقلين. و إذا كانت قريشٌ قد امتازَت من بينِ العربِ بلسانِها ، فإنما كان ذلك راجعـــاً –كما قال قتادة – إلى أنها كانت تَجْتَبي أى تنتقي من بينِ ألسنةِ العربِ ، على تبايُنِها ، خيرَ ما نَطَقَت به حتى أمسَت أبلغَ لغاتِ العربِ لغتُها.

ووَجهُ الخلافِ الثاني بين العبريةِ والعربيةِ هو أن قَوْمَ الأولى كانوا أغْيَرَ على لســـانِهم منهم على كتابِهمُ المقدّسِ الذي نُزِّل على نبيِّهم بذلك اللسان ، فلم تُحفظ المتونُ الأصليـــةُ الأولى للتوراة ، وربما تناسَوْها مُغرِضين حتى أعادَ الوُضّاعُ وضعَها كلٌّ على هـــواهُ ، وفي حدودِ ما أُتيحَ له من ذاكرة. ومن ثَمَّ ارتبطت المكانةُ الدينيّةُ للعِبريّةِ لَدَى اليهودِ بـــالنصِّ المُقَدَّسِ ، لا من حيثُ هو سَماويٌّ ، وإنما من حيثُ هو مُقَدّسٌ في نظرِهم ، ولو كانَ من

[1] يسمّى العصر اليوناني السابق على الإسكندر الأكبر بالعصر الهيليني ، و التالي له بالعصر الهيلينستي .

وَضعِ بَشَر. وليسَت مكانةُ العربيّةِ دينياً كذلكَ. لأنها ، وإن سادت لهجاتِ العرب قبلَ الذّكرِ الحكيمِ بزمن ، إلاّ أنّ هذه السيادَةَ قد عَزَّزَها القرآنُ ، من حيثُ إعجازُهُ ومن حَيْثُ حِفظُ اللهِ لهُ من التبديلِ والتحريفِ والضّياع.

ولم تكن آدابُ العبريةِ لتَجْسُرَ على منازلةِ آدابِ العربيةِ في ساحةِ النّزالِ في أيّ عصرٍ من عصورِها. فشتّان بينَ لُغَةٍ مُجتباة من بينِ لُغاتٍ عِدَّةٍ بدوافِعَ فَنّيةٍ خالصةٍ كالجمالِ الصَوتيّ ، والبيانِ المُعجزِ وبينَ لُغةٍ لم يكنْ وراءها دافعٌ يصونُها على الألسنةِ إلاّ التَعَصُّبُ والحَمِيّة. فإنّ الدافعَ الحقيقيَّ للحرصِ على اللسانِ العبريّ من الحَيْنِ والزوالِ كانَ دافعاً قومياً عنصرياً خالصاً في جوهرِه ، اقتضاهُ الاضطهادُ الذي عَصَفَ باليهودِ في مختلِفِ حِقَبِهِمُ التاريخيةِ. أماالعربُ فلم تشُبْ لغتَهم شائبةٌ عنصريةٌ في أيٍّ من أطوارِها التاريخيةِ ، وآيةُ ذلكَ أنّ العربَ اطّرَحَتْ من لسانِها كلَّ ممجوجٍ وغريبٍ بسماحةِ نفسٍ ، على ما كانت العربُ عليه من عصبيّةٍ قَبَلِيّةٍ لا ينكرُها مُنكرٌ ؛ فقدكانَ الأجدرَ بها منطقياً أن تَنْشَعِبَ إلى فرقٍ متناحرةٍ كلٌّ ينافحُ عن لهجةِ قومِه ، و لكنَّ ذلكَ لم يحدُثْ لسببٍ واحدٍ ، ألا وهو الحِسُّ اللُّغَوِيُّ الدقيقُ الذي امتازت به العربُ والذي كان كفيلاً بأن يصْدَعَ لسانُ كلّ فريقٍ منهم بأمرِ الجمالِ اللسانيّ الذي يميّزُ فريقاً غيرَه ، فعَمِلت العرب بمبدأ : من أوتِيَ خيراً مني في شئ فلأُشارِكْهُ فيه ، فما بالُكَ لو كان هذا الشيءُ لغةً أى مِلكاً على المشاع ، لا يَنْفَدُ ، شاسعَ الأطرافِ يغترفُ منه من يشاءُ بغيرِ حساب ؟ و قد كانَ الجاهليونَ ، على اختلافِ لهجاتِهم القَبَلِيّة ، يقرِضون الشعرَ و يتبارَوْنَ في إنشادِه بلغةٍ فصيحةٍ موحّدةٍ كما يفعلُ شعراءُ العربيةِ المعاصرونَ على اختلافِ بلدانِ العرب.

ثم إن العربَ لم تعرِفْ الاضطهادَ الذي عرَفتهُ اليهودُ ، ولم تتعرّضْ لمحاولاتِ غزوٍ فكريٍّ و لُغَويٍّ من قِبَلِ الفُرسِ والرومِ ، ولا لِنَفْيٍ في الأرضِ ولا شَتات Diaspora بمثلِ ما حاق باليهود. وإنما احتَصَنَت العربُ بمعقلِها الصّحراويّ المنيعِ جُغرافِيّاً مما أتاحَ للعربيةِ

أن تولَد في مهدِ الذّوْقِ اللُّغَويِّ الخالصِ ، المجرَّدِ من صِبغة العنصرية.

ولم يكنْ نزولُ القرآنِ مجرّدَ عَضُدٍ للسانِ العربِ وصَوْناً له من الضّياع، وإنما كان طَفْرةً بيانيةً اختصرَت من زمنِ نموِّه دهراً ، وقفزَت به من نزَقِ الطفولةِ ، على فصاحتِه ، إلى حُنْكةِ الرجولةِ وحصافتِها ؛ ومن خشونةِ البداوةِ وفظاظتِها إلى رِقّةِ الحضارةِ و سماحتِها؛ فصارَ العربيُّ المسلمُ أغْيَرَ على لسانِه منه في جاهليته الأولى ، لأنه و قد انضافَ إلى دقّةِ حسِّه اللغويِّ رقةُ شعورِه الدينيِّ ، أصبحَ أكثرَ انتصاراً للغتِه و للدِّرع المحكمةِ التنزيلِ التي ذادَت عنها ، وغَلّبتها على لغاتِ أقطارٍ سطَعَ نورُ القرآنِ في سمائها.

والوجهُ الثالثُ للاختلافِ بينَ العربيةِ والعبريةِ هو أن العربيةَ لم تندَثِرْ في أيِّ عصرٍ من عصورِها ، بل إنها ، تحت رايةِ القرآنِ ، أخذَت الغزاةَ العثمانيين على الرَّغام إلى ساحتِها كلغةٍ دينيةٍ رتّلوا بها آيَ الذِّكرِ الحكيمِ ، وإن لم تكنْ لغةً رسميةً لهم .

ولو كانَ العثمانيونَ أهلَ عِلمٍ و فنونٍ وآدابٍ ذاتِ خطرٍ في معيارِ التاريخِ لاتّخذوا العربيةَ لغةً لإبداعِهم الفكريِّ كما فعَلَت العَجَمُ بعد أن فتحَها اللهُ على المسلمين.

فلقد جاوَرَت العربيةُ الفارسيةَ بعدَ الفتحِ دونَ أن تقضيَ عليها ، لأن الفُرسَ كانوا ذوى شأنٍ ودَوْرٍ حَضاريٍّ في الآدابِ والعلومِ بلغتِهم قبلَ الإسلام ، فلم يجدوا غَضاضةً في الحِفاظِ على عطائِهمُ الحضاريِّ المتجدّدِ بلغةِ الفاتحينَ بعدَ الإسلام. ومن ثمّ لم تحْتَجْ العربيةُ إلى الإحياءِ المُفْتَعَلِ في يومٍ من الأيامِ كما احتاجت العبريةُ. وقد أتاحَ اللهُ للغةِ قرآنه بَسطةً في الأرضِ والقلوبِ معاً فلم تنعزلْ في ضاحيةٍ منبوذةٍ Ghetto بمثلِ ما انعزَلت العبريةُ في الجيتو الصُّهيونيِّ المعاصرِ المعروفِ بدولةِ إسرائيلَ أو الدولةِ العبريّة. وآيةُ التعصُّبِ العُنصُريِّ الذي كانَ وَليدَ الشعورِ بالاضطهادِ في أعقابِ الحربِ العالميّةِ الثانيةِ أن اليهودَ أحيَوْا لُغَتَهم من مَواتٍ ، وأن كلَّ دارسٍ مُعاصِرٍ للعبريّةِ المعاصِرةِ يكتشفُ أنها لم تزَلْ بعدُ في طَوْرِ التكوينِ ، فمن غيرِ المعقولِ أن تُجارِيَ لُغَةٌ بائدةٌ مُقتَضياتِ العصرِ بمُجَرَّدِ بَعثِها كما كانت في صورتِها الأولى.

موقعُ اللغةِ العربيةِ من التطوُّرِ اللُّغويّ :

(أولاً) : موقعُ العربيةِ من التطورِ اللغويِّ العامِّ عندَ "شليجل":

هناكَ ثلاثةُ اتجاهاتٍ أساسيةٍ لتصنيفِ اللغاتِ اتفقَ عليها علماءُ اللسانيات[1]: التصنيفُ النَّسَبِيُّ (الجِنسيُّ) Genetic classification الذى يقومُ على صلاتِ القرابةِ والنسبِ بين أفرادِ فصيلةٍ لُغويةٍ ذاتِ أصلٍ مُشترَكٍ يتمثلُ في اللغةِ الأمِّ لأفرادِ الفصيلة ؛ والتصنيفُ النَّمطيُّ Typological classification الذي يستندُ إلى أبنيةِ ألفاظِ اللغةِ وتراكيبِها وطبيعةِ علاقاتِها بعضِها ببعض ؛ والتصنيفُ الجغرافيُّ Geographical classification الذي يُلْجَأُ إليه إذا ما أعْيَت العلماءَ السُّبُلُ إلى الإحاطةِ الكافيةِ برابطةِ النَّسَبِ بين مجموعةٍ من اللغاتِ أو بنظامٍ ثابتٍ لبنيةِ ألفاظِها .

وقد تناولنا في أقسامٍ سبقَت التصنيفَ النَّسَبِيَّ للغات الساميّة ، والروافدَ التي تربطُ كلاً منها بلغتِها الأم . أما من حيثُ التصنيفُ النمطيُّ ، فان أبرزَ مميِّزاتِه هو أنه يَضربُ الصَّفحَ عن علاقاتِ النَّسَبِ بينَ اللغات ، ويستندُ أساساً إلى بنيةِ اللَّفْظِ و تصريفِه وحركاتِه الإعرابيةِ وعَلاقاتِه المنطقيةِ بالألفاظِ المصاحبةِ له في العبارةِ الواحدة . و أشهرُ النظرياتِ بهذا الصَّدَدِ نظريةُ العالِمِ الألمانيِّ "شليجل" Schlegel التي تابَعَهُ فيها جمهَرَةٌ كبيرةٌ من علماءِ اللغة[2] .

يُصَنِّفُ "شليجل" اللغاتِ الإنسانيةَ إلى ثلاثِ طوائفَ تُعتَبَرُ لمن يتأمَّلُها ثلاثَ درجاتٍ من التَرَقّي اللسانيِّ للإنسان . فالطائفةُ الأولى هي مجموعةُ اللغاتِ العازلةِ Isolating Languages ، والثانيةُ هي اللغاتُ اللَّصْقِيَّة Agglutinative[3]، والثالثةُ اللغاتُ المُتَصَرِّفةُ Inflecting أو التحليليةُ Analytical كما يروقُ للبعضِ إسباغُ هذا الوصفِ عليها . ومن الجديرِ بالملاحظةِ أن هذا التصنيفَ لا يُقصَدُ به التطورُ اللغويُّ داخلَ مجموعةٍ لُغَويَّةٍ ذاتِ أصلٍ

---

[1] Dictionary of Modern Linguistics, Librairie du Liban Publishers, First impression, 1997, pp. 18 – 20.

[2] د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة العاشرة ص ١١٥ - ١١٨

[3] يفضل بعض العلماء تسمية Agglomerative لهذه الطائفة.

مشترك لأنه قد سبقَت الإشارةُ إلى أن هذا إنْ هو إلاّ منهجٌ وصفيٌّ محـــضٌ للخصـــائص اللغويةِ لمختلِف الألسنةِ البشريةِ تأسيساً على أبنيةِ الألفاظِ وتراكيبِها والصلاتِ القائمـــةِ بينَها في نسيجِ البِنْيةِ العبارية Syntax .

والسِّمَةُ المميِّزةُ للُّغاتِ العازلةِ هي أنّ ما يحدِّدُ دَلالاتِ الكلماتِ هو الترتيبُ الذي تَرِدُ عليه في السِّياق ، فالكلماتُ في هذه اللغاتِ غيرُ مُتصَرِّفةٍ أي أنها ثابتةٌ مورفولوجياً ، غـــيرُ متغيّرةِ البنيةِ سواءٌ بحركاتٍ إعرابيةٍ أو بإضافةِ (لصقٍ) حروفٍ بالأصلِ اللفظيّ . كمـــا لا توجدُ روابطُ بينَ الكلماتِ تحدِّدُ وظائفَها المنطقية ، وإنما تتحدَّدُ الـــدَّلالاتُ مـــن مجـــرَّدِ التجاوُرِ Paratax و التنسيقِ الذي تتخذُهُ الألفاظُ داخلَ البنيةِ العبارية .

و من ثَمّ تسميتُها بالعازلة ، فالعبارةُ منها تتركَّبُ من وَحداتٍ أو أجزاءٍ لفظيـــةٍ مُســـتقلّةٍ بذاتها لا تُستفادُ وظائفُها إلا من الترتيبِ الذي جاءت عليه.

و تعتبر اللغةُ الصينيةُ خيرَ مُمَثِّلٍ لهذه الطائفةِ اللغويَّةِ التي يحلو للبعضِ تســـميتُها باللغـــاتِ الأُحاديةِ المقاطع Monosyllabic .

والطائفةُ الثانيةُ داخلَ التصنيفِ النمطيِّ للُّغاتِ تنتظمُ المجموعةَ اللَّصْقِيَّـــةَ Agglutinative التي تتحدَّدُ فيها دَلالةُ اللَّفْظِ بواسطةِ لَصْقٍ (إضافةِ) لَواصِقَ Affixes سابقةٍ على الأصـــلِ اللفظيِّ Prefixes أو لَواحِقَ Suffixes تاليةٍ له .

وقد تلعبُ هذه اللواصقُ دوراً في تحديدِ عَلاقاتِ الكلماتِ بأجزاءِ العبارة .

ومن هذا الضَّربِ من اللغاتِ الأوروبيةِ : المجريةُ و الفنلندية ؛ ومن الآســـيويةِ : التركيَّـــةُ واليابانية ؛ ومن الأفريقية : السواحِلِيَّة .

و لنضرِبْ مثالاً لهذه الطائفةِ من اللُّغةِ التركيَّة :تعني كلمةُ "ev" في التركيّـــةِ "المـــنزِلَ" في صيغتِه المُفرَدَة ، تصيرُ في صيغةِ الجمعِ إلى "evler" . ويوردُ الشكلُ التالي الكلمةَ في حالـــةِ الجرِّ بواسطةِ "في" و"إلى" ، فحالةِ المِلكِ بواسطةِ ضميرٍ مُتّصِلٍ ، فحالةِ الجَرِّ مع المِلْكِ ؛ مـــع ما يَطرَأ على الأصلِ اللَّفظيِّ من لَصْقٍ للّواحِقِ suffixes في كلّ حالةٍ منها .

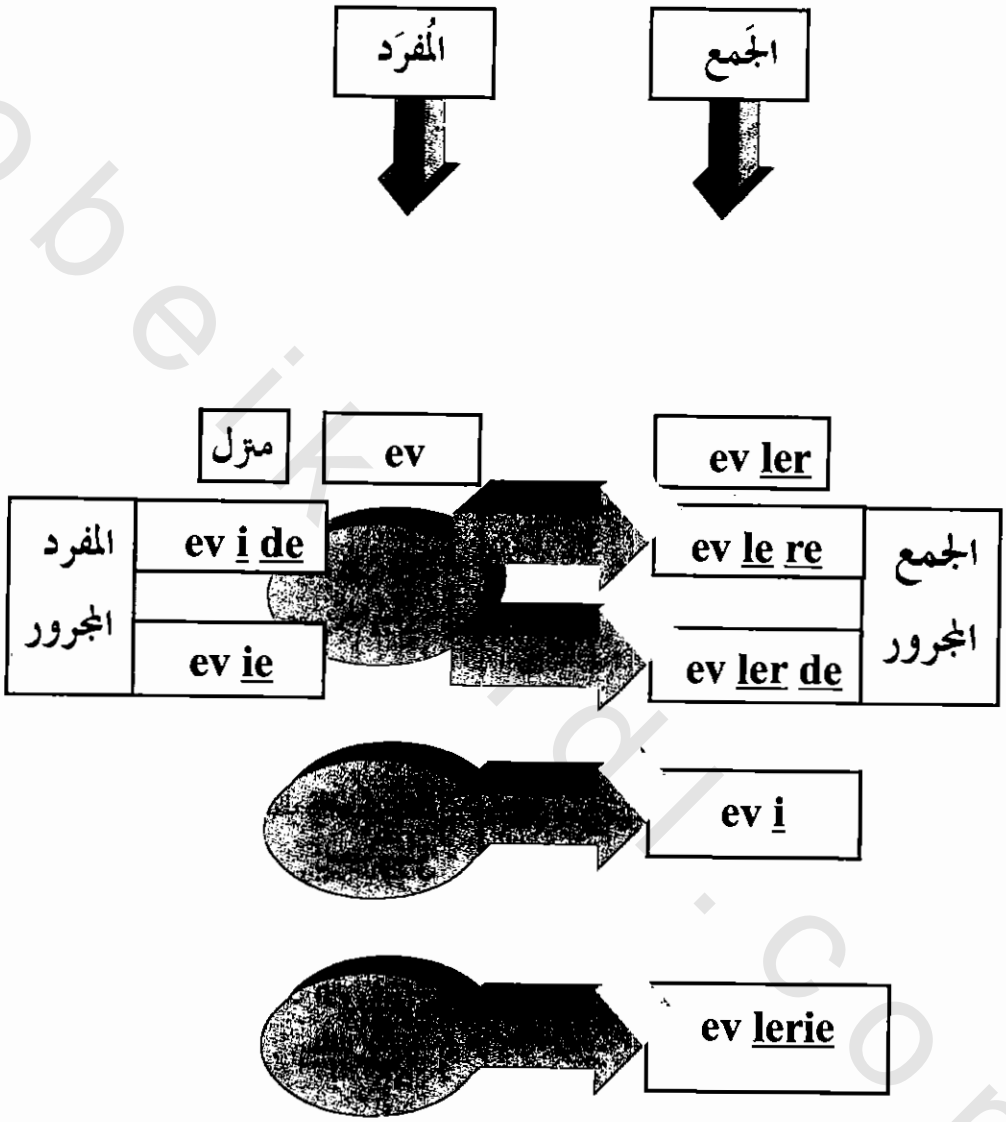

obeikandl.com

والطائفةُ الثالثةُ داخلَ التصنيفِ النمطيِّ للُّغاتِ هي طائفةُ اللغات المتصرِّفةِ Inflecting أو التحليليّة Analytical أو التركيبية Synthetic . وفي هذا الصِّنف من اللُّغات تتحدَّدُ دَلالةُ الكلمةِ بتغيُّرِ بنيَتِها بإضافةِ الوَحداتِ الصَّرفيّة Morphemes التي تعبِّرُ عنْ وظائفِ الكلمات بالعبارة . والمورفيم أو الوَحدَةُ الصَّرفيّةُ هو أصغرُ وَحدَة لُغَويّةٍ لها معنىً أو وظيفةٌ دَلاليَّةٌ تؤدِّيها في لغةٍ من اللُّغات . وهي تأتي على شاكلتيْنِ : حُرَّةٌ Free أو مُقيَّدَةٌ Bound ، ومثالُ ذلكَ كلمةُ "مدرّسون" ، حيث يُعتَبَر لفظُ "مدرّس" مورفيماً حُرّاً لأنه يستطيعُ أن يقومَ بذاتِه مُعبِّراً عن معنى معيّن ، و هو في آنٍ واحدٍ أصغرُ مورفيم لأنه لا بديلَ أصغرُ منه يفيدُ معناه . أما المورفيم "ون" فلا يمكن أن يأتيَ مستقلاً بذاتِه ليؤدّيَ المعنى ، و من ثمّ فهو مورفيم مُقيَّدٌ لا بُدَّ له من أن يَلْحَقَ بالاسمِ ليُفيدَ معنى المذكّرِ السالمِ من جهةٍ ، و ليؤدّيَ وظيفةَ الرَّفعِ من جهةٍ أخرى . ولا يوجَدُ في اللُّغةِ ما هو أصغرُ منه ليلعبَ هذيْنِ الدّوْريْنِ المتخصِّصَيْن . و تبلغُ دقّةُ الوَحداتِ الصرفيةِ أوالمورفيمات أعلىَ مراتبها في الصِّيَغِ الفعليةِ، فقولك : "يكتبُ" – على سبيلِ المثالِ –يفيدُ عدَّةَ معانٍ هي أن الفاعلَ الضميرُ الثالث "هو" ، وأن العدد مُفرَدٌ ،وأن الجنسَ مذكّر ، و أن الزّمنَ مضارع .

وإذا أخَذنا كلمةَ "عِلْم" فإنّ تغييرَ أبنيتِها يحملُ معناها على أوْجُهٍ متعددة .

فقولك "عِلْم" للدَّلالةِ على المصدَر ، و"عَلِمَ" للدَّلالةِ على الفعلِ الماضي وفاعلِه و جنسه وعدده ، و"عَلَّمَ" للدَّلالةِ على تعدّى الفعل ، و"اعلمْ" للدَّلالةِ على الأمر ، و"علوم" للدَّلالةِ على الجمع ، و"معلوم" للدَّلالةِ على الذي عُلِم . أما من جهة السِّياقِ والتنظيمِ فإن عناصرَ الجُملةِ يتَّصِلُ بعضُها ببعضٍ عن طريقِ روابطَ تُعيِّنُ العلاقاتِ فيما بينها . فتقولُ مثلاً : ذهبَ محمدٌ و عليٌّ من المنزلِ إلى الجامعةِ ؛ فالتنوين بعد الدالِ في "محمد" (أى الإتيانُ بواوٍ قصيرةٍ ونونٍ زائدتين) يفيدُ أن محمداً قد أحدَثَ الحَدَثَ ؛ والواوُ العاطفةُ عَلِيّاً على محمد تربطُ بينَ شخصيْنِ في أداءِ الفِعل ، و"مِنْ" دَلالةٌ على نقطةِ الابتداءِ في الفِعل ، و"إلي" دَلالةٌ على نقطةِ الانتهاء منه[1] .

---

[1] د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة (السابق) ص ١١٥.

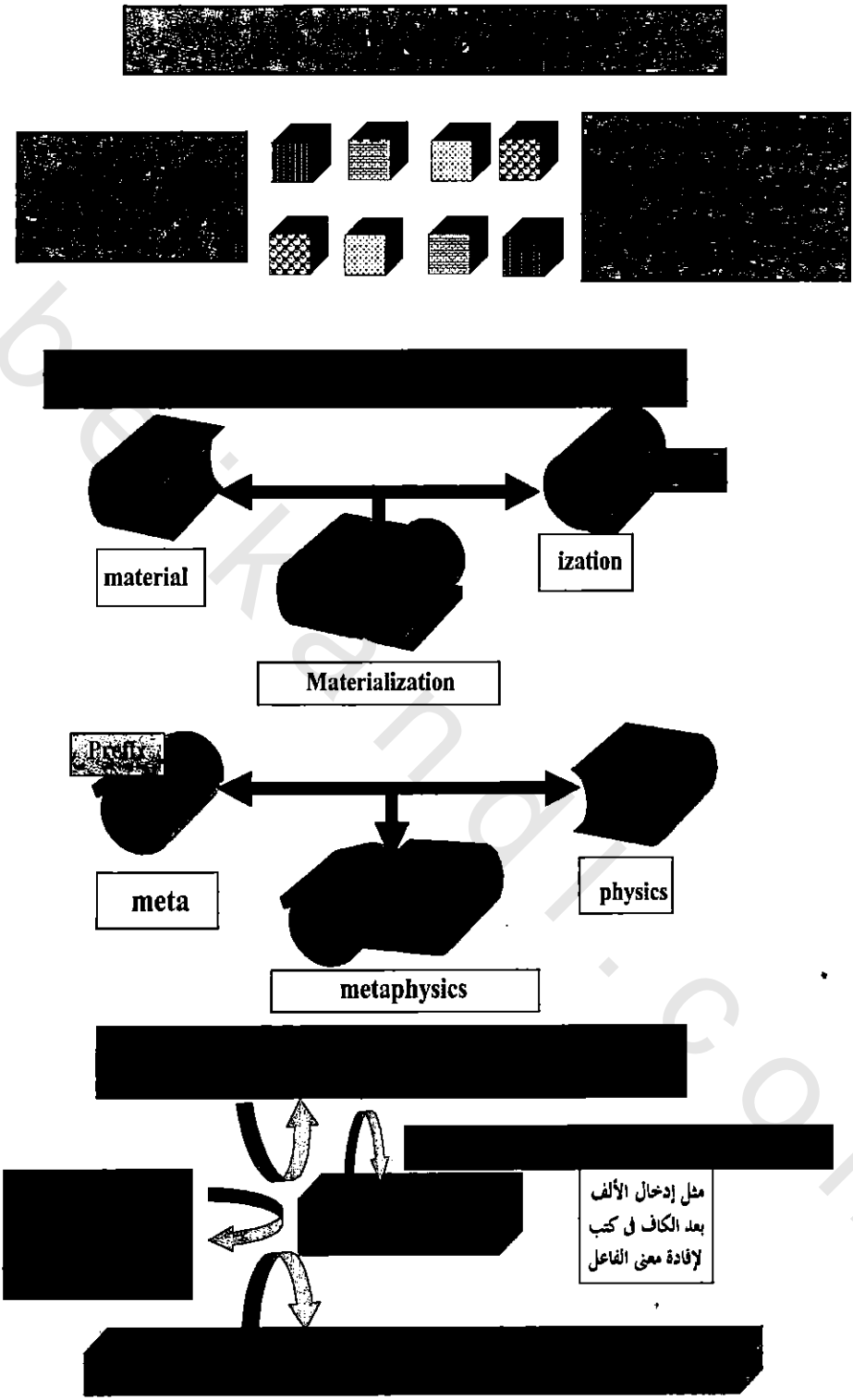

يلاحظ أن المثالين الواردين هنا لعرض مفهوم اللغات اللصقية مستمدان من لغة متصرفة لتقريب مفهوم اللصق لأن اللغات المتصرفة ، وبالذات الهندو – أوروبية لا تخلو من لصق السوابق واللواحق (راجع النص)

ومن الجليِّ أن العربيةَ من خيرِ أمثلةِ اللغاتِ المتصرّفة ، و يصدُقُ ذلك أيضاً على اللغاتِ السّاميّةِ على وجهِ العموم ، و على اللغاتِ الهندو– أوروبية و بخاصةٍ اللاتينيةُ والفرنسيةُ والإيطالية.

ويرى أنصارُ نظريةِ التصنيفِ النمطيِّ للُّغاتِ أن اللغاتِ الإنسانيةَ نشأَت في مبدئِها عازلةً ، ثم ارتقَت إلى لغاتٍ لاصِقةٍ ، حتى بلغَت الدّرَجَ الأعلىَ في الارتقاءِ عندَ طبقةِ اللُّغاتِ المتصرِّفة. إلا أنه مما لا شكَّ فيه أن هذا التصنيفَ لا يَسَعُهُ أن يَستنفِدَ عالَمَ المقالِ – على حَدِّ قوْلِ المناطقة – وهو ليس بالقَوْلِ الفَصْلِ في التمييزِ بينَ الأنماطِ اللُّغوية ، لأنّ الحدودَ الصارمةَ التي يُخطُّها بينَ الصُّنوفِ اللُّغويّةِ لا تَصْمُدُ أمامَ التداخلِ بين سماتِ صِنفٍ منها وسِماتِ صِنفٍ مُخالفٍ له حينَ يجتمِعانِ بداخلِ اللغةِ الواحدةِ بعينها ، أو بمعنى آخرَ فإننا نلمسُ في الكثيرِ من اللغاتِ المتصرّفةِ و لاسيّما المجموعةِ الهندو–أوروبية جمعاً بين القابليةِ للتصريفِ و اللّصقِ معاً. وهذا لا يعنى بأيةِ حالٍ أنها من الأنماطِ اللغويةِ التي لم تشبّ عن الطّوْقِ في أطوارِ النموِّ اللغويِّ ، لأن القابليةَ للّصقِ في نسيجِ لغةٍ متصرّفةٍ هو مما يُحسَبُ لها لا عليها ، بل نكادُ نقولُ إن افتقارَ لغةٍ متصرِّفةٍ إلى هذه القابليةِ هو من المآخذِ عليها ومن المثالبِ التي تُحِدُّ من مرونتِها وطواعيتِها للتّوسيعِ والتطوير، وبخاصةٍ في لغةِ العلومِ الطبيعيةِ والإنسانيةِ التي لا تَملُّ ولا تكِلُّ عن النحتِ اللغويِّ المطّردِ لابتكارِ الجديدِ من مصطلَح.

وغنيٌّ عن البيانِ أن النحتَ يستلزمُ اللّصقَ لأنه يقومُ على انتزاعِ أصواتِ كلمةٍ واحدةٍ من كلمتين فأكثر أو من جملةٍ للدّلالةِ على معنى مركّبٍ من معاني الأصولِ التي انتُزِعَت منها[1] كقولك مثلاً "بَسْمَلَ" أى "قال: بسم الله الرحمن الرحيم"، أو "حَوْقَلَ" أى "قال: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله" ، وما إلى ذلك . على أنه من الملاحَظِ أن هذا الأسلوبَ في التوليدِ اللفظيِّ بالغُ النُّدْرةِ في اللغاتِ الساميّةِ و منها العربيةُ بالطبع ، بينما يَشيعُ

[1] د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة (السابق) ص ١٨٦.

اللجوءُ إليه بتوسُّعٍ في اللغاتِ الهندو-أوروبية ، مما كان له أبلغُ الأثرِ في اصطناعِ علـــومِ الغرب لأدَقِّ المصطلحاتِ وأحَدِّها مَضاءً في التعبيرِ القاطعِ عن المفاهيمِ العلميةِ بإيجازٍ بليـغٍ و حُسنِ إصابةٍ للمعنى المستفاد. و سوف نناقشُ هذا الأمرَ باستفاضةٍ بإذنِ الله في القسـم الثاني من هذا العمل في فصل مُفْرَدٍ له.

(ثانياً): موقع العربية من التطوّر اللغوي في شجرة اللغات الساميّة :

يتّفِقُ اللغويُّونَ المعاصرونَ على تسميةِ اللغةِ الأمِّ في شجرةِ اللغاتِ الســاميّةِ باللغـةِ البروتوسامية Proto-Semitic[1] أى النمطِ البَدْئيِّ أو الأصليِّ من اللغـةِ الأولى الـتي أنجَبَـت مجموعةَ اللغاتِ الساميةِ ، الباقي منها والبائد.

وقد تمكن العلماء بعد جَهْدٍ جهيدٍ من إنجازِ ما يُعرَفُ في علومِ اللغةِ بإعـادةِ البنـاءِ اللغويِّ Reconstruction للُّغةِ الساميّةِ الأصليةِ للوقوفِ على معالِمِها الصوتيةِ (الفونولوجيـا Phonology) و الشكليةِ (المورفولوجيا Morphology) و البِنْيويّةِ (الســينتاكس Syntax) أى المتعلّقةِ بطبيعةِ البنيةِ العباريةِ فيها.

وكما هو متوقّعٌ بالضرورةِ فإنّ اللغاتِ الساميةَ الباقيةَ إلي اليومِ ليسَت جميعها علـى قَدَمِ المساواةِ في الاحتفاظِ بالخصائصِ الأساسيةِ للُّغةِ الأصلِ التي انحدَرَت منها. و يتفـقُ البَحّاثُ على أن اللغةَ العربيةَ تتفرّدُ من بينِ شقيقاتِها الساميات بأنها كانت أبَرّهـنَّ بأمِّـها الهَرِمة، وأكثرَهنَّ تشبُّهاً بها ، وأحرصَهُنّ على السماتِ اللغويةِ التي أُورِثَتْها من تلـك الأمِّ. وبلَغَت شدةُ اقترابِ العربيةِ من الساميةِ الأمِّ حداً دَفَعَ العلماءَ إلى وصفِ العربيةِ بأنها "أشدُّ اللغاتِ ساميّةً".

---

[1] Mukhopadhyaya, Satakari: Preface, A Grammar of the Classical Arabic Language, by Mortimer Sloper Howell, trans.4 vols. Delhi, India, Gian Publishing House, 1986.

وسنوجزُ فيما يلي الخصائصَ الصوتيةَ والشكليةَ والبنائيةَ للُّغةِ البروتوساميةِ أو الساميةِ الأصلية ، ومن خِلال تحديدِ هذه الملامحِ للُّغةِ بائدة في عُرْفِ التاريخِ سنَعقِدُ مقارنةً بينَـــها وبينَ ما حفِظَتْهُ العربيةُ المعاصرةُ من هذه الملامحِ لكَيْ نُقَوِّمَ حُكمَ التاريخِ على الســلميةِ الأمِّ و نعرفَ إن كانت قد قَضَتْ نحبَها إلى غيرِ رَجعَةٍ ، أم أنها سلَّمَتْ الأمانةَ إلى خير وريثاتِها.

صوتيّات (فونولوجيا) اللُّغةِ البروتوساميّة[1]:

ثَمَّةَ خمسُ خصائصَ فونولوجيةٌ تميِّزُ اللغةَ الساميّةَ الأمَّ ، وهى :

(١) وجودُ نظامٍ سُداسيٍّ المُصَوِّتاتِ Six vowel system ينتظمُ ثلاثَ حركاتٍ (أصواتِ لِّينةٍ) ممدودات ، و ثلاثاً مقتضَبات (قصيرات) يمكنُ تمثيلُ أصواتِها بالأحرفِ العربيةِ كما يلي : آ ، إى ، أُو ، أَ ، إِ ، أُ .

(٢) احتواؤها على حروف ساكنةٍ Consonants من النوعِ الحَلْقيِّ الاحتكاكيِّ Pharyngeal fricative مثلِ "الحاء" التي تُعَدُّ صوتاً حَلْقياً احتكاكياً مهموساً Voiceless ، و "الغيْن" و هـــى من الأصواتِ المجهورةِ Voiced .

(٣) استخدامُها الصوتَ الحَنجَرِيَّ الانغلاقيَّ[2] Glottal stop كوَحدَةٍ صوتيةٍ Phoneme[3] .

(٤) استخدامُها أنصافَ المصوِّتاتِ Semivowels (الواو والياء) كحروفٍ ساكنةٍ Consonants

(٥) وجودُ ثلاثةِ صنوفٍ من السَّواكنِ المجهورةِ Voiced Consonants وهى في العربيةِ تســعةَ عشرَ حرفاً : أ ب ج د ذ ر ز ض ط ظ ع غ ق ل م ن و ى ا ،والمهموسةِ Voiceless وهى عَشرةُ أحرُفٍ : ت ث ح خ س ش ص ف ك الهاء ، والمشدّدةُ Emphatic وهـــى ثمانيـــةُ أحرُفٍ : أ ب ت ج د ط ق ك .

و يسترعى الانتباه أن اللغة العربية المعاصرة تستوفى هذه الخصائص الخمس بحذافيرها[4] .

---

[1] Kaye, Alan S : The World's Major Languages, Comric B , New York : Oxford University Press , 1987, pp. 664- 685

[2] الصوت الحادث من انغلاق لسان المزمار أى الفراغ بين (الوترين) الصوتيين مما يؤدى الى حبس التيار الهوائى ثم انفراج الوترين فجأة فيطلق الهواء المحبوس كما فى همزة القطع أ

[3] الفونيم أصغر وحدة صوتية قادرة على تمييز كلمتين مختلفتين كالفرق بين كلمتى "حرير" و " خرير " المختلفتين فى الحرف الأول فقط و المتساويتين فى باقى الأصوات .

[4] Kaye : op. cit.

شكْليّاتُ (مورفولوجيا) اللغةِ البروتوساميّة :

احتفظَت العربيةُ بالكثيرِ من السماتِ المورفولوجيةِ الأساسيةِ للُّغةِ الساميّةِ الأم ، و هى سبعٌ على الأقل ، وتشملُ :

(١) تركُّبَ الكلماتِ من جذْرٍ مُكوَّنٍ من أحرُفٍ ساكنةٍ ينبني عليه نظامٌ صوتيٌّ بإضافةِ الأحرفِ اللّيّنةِ (المصوّتات) . فالجذرُ " كَتَبَ " مثلاً يتكرَّرُ في الكلمتين "مكتبة" و"كاتب" إلا أن المصوّتات و السّواكنَ الإضافيةَ تُبدِّلُ مواقعَها منه ، ويلتصقُ بعضُها كَدَواخِلَ Infixes في وَسَطِ الجذْرِ (كالألف بعد الكاف في كاتب) لإفادة المعنى المقصود إليه .

(٢) احتواءَ الجذورِ في غالبِ الأحيانِ على ثلاثةِ أحرُفٍ ساكنةٍ ،ونُدرةُ الجذورِ الثُّنائيةِ السواكن .

(٣) كثرةَ اللُّجوءِ إلى الإدخالِ Infixation في وسط الجذر اللفظيِّ (كما تقدّم) ، وقِلّةَ اللُّجوءِ إلى إلصاقِ السوابقِ Prefixes و اللواحقِ Suffixes في معرِضِ إحداثِ تغييراتٍ مقوليّةٍ Category changes وتوليدِ الألفاظِ المتعلقةِ بها .

(٤) تعيينَ النظامِ الصّرْفيِّ Declension system لثلاثةِ أحوالٍ إسميّةٍ على أقلّ تقديرٍ ، وهى حالةُ الرَّفعِ (صيغة الفاعل Nominative) ، والنّصْبِ (صيغة المفعول Accusative) ، والجرِّ (صيغة الإضافة Genitive) .

(٥) وجودَ ثلاثِ صِيَغٍ للعددِ هى المفرَدُ و المُثنّى والجَمعُ ، ومُطابقَةُ الأسماءِ والأفعالِ والنُّعوتِ (الصفات) لكلِّ صيغةٍ منها وَفْقَ الاقتضاء ؛ وتُعَدُّ هذه السِّمَةُ مما تتفرَّدُ به اللغاتُ الساميّةُ بينَ لغاتِ البَشَرِ، ولا يخفَى ما يُسبْغُه ذلكَ عليها من دقةٍ في الأداءِ وإصابةِ المعنى .

(٦) الوضوحَ في التمييزِ بين الجِنْسِ المذكّرِ والجنسِ المؤنَّثِ في الأسماءِ والنُّعوتِ والأفعال .

(٧) مخالفةَ العددِ للجنسِ بين الثلاثةِ والعَشْرةِ .

بنائيّاتُ اللُّغةِ البروتوسامية[1] :

لم يُكَلَّل مسعى علماءِ اللسانياتِ بالاهتداء إلى تَصَوُّرٍ مكتمِلِ الأركانِ لطبيعةِ البِنْيةِ العباريةِ Syntax للُّغةِ الساميّةِ الأمّ يُضاهي التوفيقَ الذي واتاهم في التعرُّف على صوتياتها وشكلياتها . ومن المظنونِ أن أسماءَ الإشارةِ في الساميّةِ – بخلافِ العربية – كانت تتبَعُ الأسماءَ في الترتيب. و المتفقُ عليه جُملَةً هو أن التشابهَ بينَ عربيتِنا و بينَ الساميّةِ أبعدُ من كلّ تصوُّر ،وهذا لا ينفي بالطبعِ أنه قد طَرَأَ على العربيةِ نزْرٌ يَسيرٌ من التغيُّراتِ مُقارنةً باللُّغةِ الأمّ .

(ثالثاً) تطوُّرُ العربيّةِ داخلَ نطاقِها اللغويّ من البائدةِ إلى الباقية :

يكتنفُ مولدَ اللغةِ الفُصحَى عندَ العربِ الكثيرُ من الغموضِ ، و يبدو أن القولَ المأثورَ بأنها لسانُ قُرَيْشٍ في الأصلِ ليسَ بالقولِ الفصلِ ولا نهايةِ المطافِ على طريقِ البحثِ والتمحيص . فنرَى البعضَ من كبارِ المستشرقينَ الذينَ عَشِقوا العربيةَ ، ووَقَفوا حياتَهم على التَغَلْغُلِ في أدقّ دقائقِها يشكّكُ كلّ الشكّ في استئثارِ قريشٍ بالفضلِ في اجتباءِ خيرِ ما جرى على اللسانِ العربيِّ استكمالاً لأدواتِ فصاحتِه .ويتبَعُ هؤلاءِ المستشرقينَ في الرأيِ بعضُ كبارِ الباحثينَ العرب.

فيرى " نولدكه " Noeldeke الألمانيُّ أن الفروقَ بينَ اللهجاتِ في جزيرةِ العربِ لم تكنْ كبيرةً ، وأن اللغةَ الفصحىَ مبنيّةٌ على هذه اللهجاتِ جميعاً[2].ويتفقُ معه "جويدى" الإيطاليُّ إذْ يرى أن العربيةَ الفصحىَ لم تكنْ لهجةَ قومٍ بعينِهم ولا قبيلةٍ بعينِها ، وإنما هي مزيجٌ من لهجاتِ نجدٍ و ما جاوَرَها . و يقولُ "بروكلمان"[3] Brockelman : ولا شَكَّ أن لغةَ الشعرِ

---

[1] Hetzron , Robert : Semitic Languages : The World's Major Languages , op. cit. Pp. 654 – 663

[2] خير الدين الزركلي : الأعلام ،دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ج ٢ ص ٩٦.

[3] كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، الطبعة الخامسة ، ج ١ : ص ٤٢ .

القديمِ هذه لا يمكنُ أن يكونَ الرُّواةُ والأدباءُ اخترعوها على أساسِ كثرةٍ من اللـــهجات الدارجة . ولكنَّ هذه اللغةَ لم تكَدْ تكونُ لغةً جاريةً في الاستعمالِ العام، بل كانت لغـــةً فنيةً قائمةً فوقَ اللهجاتِ ، وإن غذّتها جميعُ اللهجات . وقد استوْعبَت لغةُ الشعرِ هـــذه كلَّ خصائصِ الأصلِ اللغويِّ الساميِّ أكملَ استيعابٍ ، و إن لم تحتفظْ في جميـــعِ نواحيـــها بأقدمِ الصِّيَغِ و القوالِبِ ، و لم تضارعْها لغةٌ من نَسَبِها الساميِّ في مرونتِها ودقّتِها في التعبيرِ عن العَلاقاتِ التركيبيّة . و هي مع واقعيتِها التامّةِ في وصفِ الأشياءِ تتـــأجَّجُ بروحانيـــةٍ تمكّنُها من التعبيرِ عن أرقّ أحاسيسِ الحب ، وكذلكَ عن أقوى خوالجِ الشـــعورِ بكرامـــةِ الرجولة " .

أما " كارلو نللينو " الإيطاليُّ فيقول[1] : "ما هي اللغةُ المصوغةُ فيها الأشـــعارُ القديمـــةُ المشهورةُ و المُنزَلُ بها القرآنُ ؟ أقولُ لا شكَّ في أنها لغةُ الشعرِ الجاهليِّ المنقولِ في كتُـــبِ السَّلَف . . . فباللغةِ الأدبيةِ نَزَلَ القرآنُ ،وإذا أمعنّا النظرَ في دلائلِ القائلينَ بأن العربيـــةَ المُبينةَ لغةُ قريشٍ وعرَضناها لِمحَكِّ المنتقد ، وجدنا فيها ضعفاً ظاهراً ، فانهم استدَلُّوا بوفـــودِ الشعراءِ والخطباءِ من كل فَجٍّ إلى سوقِ عُكاظ ، وما انتبهوا إلى ما هو مشهورٌ ومُجْمَعٌ عليه من أن عُكاظَ إنما اتُّخِذَت سوقاً في عهدٍ قريبٍ من الإسلامِ ، وكان امرؤُ القَيْسِ قد ظَفَـــرَ من مُدَّةٍ بقَصَبِ السَّبقِ في ميدانِ الشعرِ بالعربيةِ الفُصحىَ ، واستدلوا بانتقاءِ قريـــشٍ مـــا حلا في الذَّوْقِ وخَفَّ على السمعِ من لُغاتِ العربِ الوافدينَ إلى مكةَ أو عُكاظَ ، وفـــاتهم أن مِثلَ هذا التهذيبِ الصناعيِّ من طَرَفِ قوْمٍ ولاسيّما من قومٍ قلّت الآدابُ فيهم ، هـــو من الأمورِ المخالفةِ لنواميسِ تكَوُّنِ اللغاتِ ونُمُوِّها، واستدلّوا بأن قريشاً كـــانت أفصَـــحَ العربِ ، وما رَأَوْا أنه قولٌ لا أصلَ تاريخيٌّ له ، وتناقِضُهُ رواياتٌ أخرىَ متعددةٌ منقولـــةٌ في كتُبِ اللغةِ والحديث . فإذا كانت قريشٌ أفصحَ العربِ ، فلماذا إنما نقلَـــت اللغـــةَ عـــن غيرِها؟ فبَدَلَ أن يستشهِدَ النُّحاةُ و اللغويونَ بقريشٍ اقتبسوا العلمَ من أشعارِ الجاهليـــةِ أو عِربانِ البادية . لماذا لم يسأل المفسّرونَ أهلَ مكةَ عن غريبِ القرآنِ لو كان التنزيلُ بلُغـــةِ

---

[1] نللينو ، كارل ألفونس : كيف نشأت اللغة العربية ؟، مجلة الهلال السنة ٢٦ ، عدد أكتوبر ١٩١٧ ، ص ٤١ – ٤٨ .

قريشٍ ، وإنما استفادوا من قديمِ الشعرِ غيرِ القُرَشِيِّ كما يتضحُ من كُتُبِ اللغةِ وتفسيرِ الطَّبَرِيِّ ومما جاء مَعْزُوّاً إلى ابنِ عباسٍ في النوعِ السادسِ والثلاثينَ من كتابِ الإتقانِ في علومِ القرآن للسيوطيِّ ؟ثم أليسَ من المستبعَدِ بل من المحالِ ارتقاءُ العربيةِ إلى أوْجٍ كمالها في قبيلةٍ كادَ لا ينبُغُ فيها شاعرٌ مشهورٌ ، ولا خطيبٌ مذكورٌ، دونَ القبائلِ المُتفَقِ على فَوْزِها بالقِدْحِ المُعَلَّى من البلاغةِ والشعر؟

فلا شكَّ للمُتَرَوِّى في هذه المسألةِ تروِّياً مُنصِفاً خالياً عن الأغراضِ ، أن الناسَ ما ذهبوا إلى القولِ بفضلِ لغةِ قريشٍ على غيرِها من لغاتِ العربِ إلا حبّاً و إكراماً لقبيلةِ النبيِّ ، و أنهم أنفسُهم لم يعمَلوا به في مباحثِهمُ اللغوية ".

ومن بين الباحثينَ العرب يتفقُ الأستاذ أمينُ الخولى و الدكتور عبده الراجحيُّ والدكتور عبد المنعم الزّبيدىُّ مع كارلو نللينو فيما ذهب اليه[1] .ويرى البعضُ من أنصارِ هذا المذهبِ أنّ الاحتجاجَ بالسُّنَّةِ النبويّةِ الذي يلجأ إليه مخالفوهم في الرأى لإثباتِ الفضلِ لقريشٍ في حديثِ الرسولِ صَلّى اللهُ عليه و سَلَّمَ : " أنا أفصحُ العربِ بَيْدَ أنى من قريش" فيه عَسْفٌ في التأويلِ ، لأنهم ذهبوا إلى أن " بيْدَ " تعنى " من أجل ".و"بيدَ" اسمٌ ملازِمٌ للإضافةِ إلى أنّ و معمولَيْها ، ومعناهُ " غيرَ " أى "إلاّ أنّ" ، و لا يقعُ صِفةً و لا استثناءً متصلاً ، وإنما يُستثنَى به استثناءً مُنقطِعاً ، نحو "فلانٌ كثيرُ المالِ ، بيد أنه بخيل"[2] . و مما يَدْحَضُ هذا التأويلَ بأخْذِ كلمةِ "بيد" مأخذَ التعليلِ بدلاً من الاستثناء ،وشتّان ما بينهما، قولُ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عنه :"يا رسولَ الله ، ما لَكَ أفصحُنا و لم تخرُجْ من بينِ أظهُرِنا؟" فيجيبُه رسولُ الله :"كانت لغةُ إسماعيلَ قد دَرَسَتْ فجاءَ بها جبريلُ عليه السلامُ فحَفَّظَنيها فحَفِظْتُها"[3] .

---

[1] محمد يوسف الجطلاوى : الشعر الجاهلي و أثره في تفسير معاني القرآن الكريم ، منشورات جامعة قار يونس ، بنى غازى ، ص ٦٩ .

[2] المنجد الأبجدى ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، ص ٢١٨.

[3] أخرجه ابن عساكر في تاريخه.

ويُفهَمُ من سؤالِ عُمَرَ أن قريشاً لم تكنْ أفصحَ العربِ ، لأنه ليسَ مجرَّدَ سؤالٍ و إنما هو تعَجّبٌ من تسنُّمِ رسولِ الله أعلَى مكانةٍ في الفصاحةِ اللسانيةِ بين قومٍ لم يغادرْهم في يـــومٍ من الأيامِ لتَسْنَحَ له الفرصةُ للتمكّنِ من فصاحةِ قومٍ غيرِهم أطولَ منهم باعـــاً ، و أعلـــى منهم مقاماً في هذا الشأن. إلا أن بعضَ الباحثين[1] يرَى أنه لا تعسُّفَ إطلاقـــاً في تـــأويلِ حديثِ الرسول ، بل يذهبُ إلى أبعدَ من ذلكَ فيستحسنُ استخدامَه لفظَ "بيد" باعتبـــارِه أسلوباً تستعملُه العربُ ويُعَدُّ من جَيِّدِ ضُروبِ البلاغة ، و هو ما يسمونه : تأكيدَ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمّ ، فيما يُشبِهُ قَوْلَ النابغةِ الذبيانيّ :

وَلاَ عَيْبَ فيهِمْ غيرَ أن سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

(الطويل)

وبالجُملةِ ،فإنه مهما تعدّدَت الآراءُ التي تشكّكُ في أنّ قَصَبَ السَّبقِ كان لقريـــشٍ في تحريرِ شهادةِ ميلادِ العربية ، وتنقيتِها من كلّ شائبةٍ أو غريبٍ أو مرذولٍ ، فما من ســـبيلٍ إلى إنكارِ اتفاقِ الكثرَةِ الغالبةِ من بُحّاثِ العربِ – أقدَمينَ و مُحْدَثـــينَ – علـــى أن لغـــةَ القرآنِ الكريمِ هى لغةُ قُرَيْش.

فيقول الدكتور طه حسين : "و قد يكونُ من التكلُّفِ و التحذُّقِ أن يُجمِعَ العـــربُ كافّةً على أن لغةَ القرآنِ هى لغةُ قريشٍ وألا يظهَرَ في العصرِ الإسلاميِّ الأوّلِ ولا في أيـــامِ بنى أُمَيّةَ ، ولا في أيام بنى العباسِ من يُنكِرُ هذا أويجادلُ فيه برَغمِ ما كانَ مـــن الشُّـــعوبيةَ الأعجميةِ ومن الشعوبيةِ الحِميريّةِ ومن الخصوماتِ السياسيةِ بينَ قريشٍ و غيرِها من قبـــائلِ مُضَر ؛ ثم يَزعُمُ زاعمٌ أن هذه اللغةَ ليست لغةَ قريشٍ و إنما لغةُ قبيلةٍ أخرى مهما تكنْ هذه القبيلة"[2] .ومن أنصارِ هذا الرأيِ ممن أرّخوا لآدابِ العرَبِ من المحدَثين : جُرجى زيـــدان وسليمان البستانيُّ ومصطفى صادق الرافعيُّ وعباس محمود العقاد وأحمد حســـن الزيـــات وسعيد الأفغاني و غيرُهم.

---

[1] محمد يوسف المطلاوى : الشعر الجاهلي و أثره ... (السابق) ص ٧٢ – ٧٣ .

[2] د. طه حسين : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة عشرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٥.

وسنعرِضُ لكَ فيما يلي نماذِجَ من ذَلِكَ الغريبِ والممجوجِ من لهجاتِ قبائلِ العـربِ[1] التي لم يكنْ للعربيةِ مندوحةٌ عن اطّراحِها حتى تتّخِذَ أبهى زينتِها تأهُّباً لاســـتقبالِ الذّكـــرِ الحكيمِ الذي شرَّفها نُطقاً بلسانها ، ثم لم يَلبَثْ أن أطلقَ هذا اللسانَ من عُقالِه البـــدويِّ إلى آفاقِ حَضَرِيّةٍ بَسَطَها له كلَّ البَسْط .

العَنْعَنَة[2] : و مثالها :-

يقُلْنَ و ما يدرينَ (عَنّى)أ سَمِعتُهُ و هنّ بأبواب الخيام جُنوحُ

العَجْعَجَة : و مثالها :

عَمّى عُوَيْفٌ و أبو (عَلِجٌ)ى المُطْعِمانِ اللّحمَ (بالعَشِجٌ)ى

الكَشْكَشَة : و مثالها :

(فعَيْناشِ) عيناها و(جيدُشِ)ك جيدُها و(لَوْنُشِ)ك إلاّ أنها غيرُ عاطِلِ

الوَتَم : و مثاله :

يا قاتَلَ اللّهُ بنى (السِّعلاتِ)س عمرو بنَ يَرْبوعٍ شِرارَ (النّاتِ)س

الاستنطاء : و مثاله :

جيـــادُكَ خـــيرِ جياد الملوكِ تُصانُ الجِلال و (تُنْطى)ع الشّعيرا

الطَّمْطَمانيّة : و مثالها :

-ذاك خليلي و ذو يعاونني يرمى ورائى (بامْسَهْمِ) و (امْسَلَمَهْ)

بالسهم و السلمه

---

[1] محمد يوسف الجطلاوى : الشعر الجاهلي ... (السابق) ص ٤٢ – ٤٧ .

[2] يُوضّحُ الجَدوَلُ الواردُ في ص ٠٠ أهمَّ هذه اللّهجات.

لهجات العرب (د على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ، ص ١٢٤-١٢٧ بتصرّف)

القوم	اللهجة	مثال
تميم	إبدال همزة أن عينا (عنعنة)	عن توسعت بدلا من أن توسعت
طيء	إبدال الهمزة هاء	لهنّك بدلا من لأنك
مازن	إبدال الميم باء و الباء ميما	با اسمك بدلا من ما اسمك و مكر بدلا من بكر
خثعم و زبيد	حذف النون من الجارة	ملبيت بدلا من من البيت كعامية مصر اليوم
طيء	قطع اللفظ قبل تمامه	يا أبا الحك بدلا من يا أبا الحكم
أسد	إبدال الكاف شينا لاسيما فى الوقف كشكشة	عليش بدلا من عليك
اليمن	إبدال الكاف شينا مطلقاً (شنشنة)	لبيش اللهم لبيش
ربيعة	إلحاق سين بكاف المخاطب للذكر	قولهم عليكس بدلا من عليك (كسكسة)
هذيل و قيس و الأنصار	إبدال العين الساكنة قبل الطاء نونا -استنطاء	إنا أنطيناك الكوثر بدلا من انا أعطيناك
تميم	إلحاق صوت القاف باللهاة فيصبح جيما أو كافا	كتولهم جال بدلا من قال و هذا منتشر فى مصر
تميم	إبدال ياء النسب و الإضافة جيما	فلاج ، حاج ، مشج بدلا من فلامى ، حلى ، مشى
قضاعة	فتح باء الجر و كسر لامه فى ضمير الغائب	مررت بَهْ و لَهْ بدلا من به و له
اليمن	إبدال السين تاء (الوتم)	التفات بدلا من الناس
	همز ياء النبى	النبيء بدلا من النبى
	تسكين الذال	أذن بدلا من أُذُن
إبدال الهمزة التالية لهمزة الاستفهام هاء مع مد همزة الاستفهام أو عدم مدها		قراءة نافع :آهنذرتهم بدلا من أأنذرتهم
	همز الياء	قراءة ابن كثير : ضِئاء بدلا من ضياء
	إدغام الصوتين المتحدين فى المخرج إذا تجاورا	الخدتم بدلا من اتخذتم (قراءة أبى عمرو)
بنو أسد	ضم هاء أيها إذا لم يتلها اسم إشارة	أيهُ بدلا من أيها
بهراء	كسر أوائل الأفعال المضارعة	قولهم يضرب بدلا من يَضرب (تلتلة)
هذيل	إبدال ياء الذين واوا فى حالة الرفع	قولهم :هم الذون بدلا من هم الذين
بنو الحارث بن كعب	إبقاء ألف هذان و هاتان فى النصب و الجر	و بها قرىء : "إن هذان لساحران"
حِمْيَر	التعريف بأم بدلا من أل (طمطمانية)	ليس من امبرّ امصيام فى امسفر
هذيل	قلب ألف المقصور ياء عند الإضافة	قولهم :سعيتوا هوى بدلا من سعتوا هواى
ربيعة	الوقوف على المُنَوّن بالسكون عند النصب	قولهم : رأيت محمد بدلا من رأيت محمدا
تميم	عدم إعمال "ما"	قولهم : ما محمد قائم بدلا من " قائماً "
قريش	فتح الراء فى برىء من المرض	قولهم : برأتُ من المرض فأنا براء
تميم	كسر الراء فى برىء ، و هى لغة سائر العرب	قولهم برئت من المرض فأنا برىء
	إشباع الضمة فى عين المضارع المضموم	قولهم : أنظور بدلا من أنظر
أزد السراة	تسكين الهاء فى وصل الضمير باللام	قولهم : لهْ بدلا من لهُ
	وصل واو بميم الجمع	قولهم عليمو بدلا من عليهم

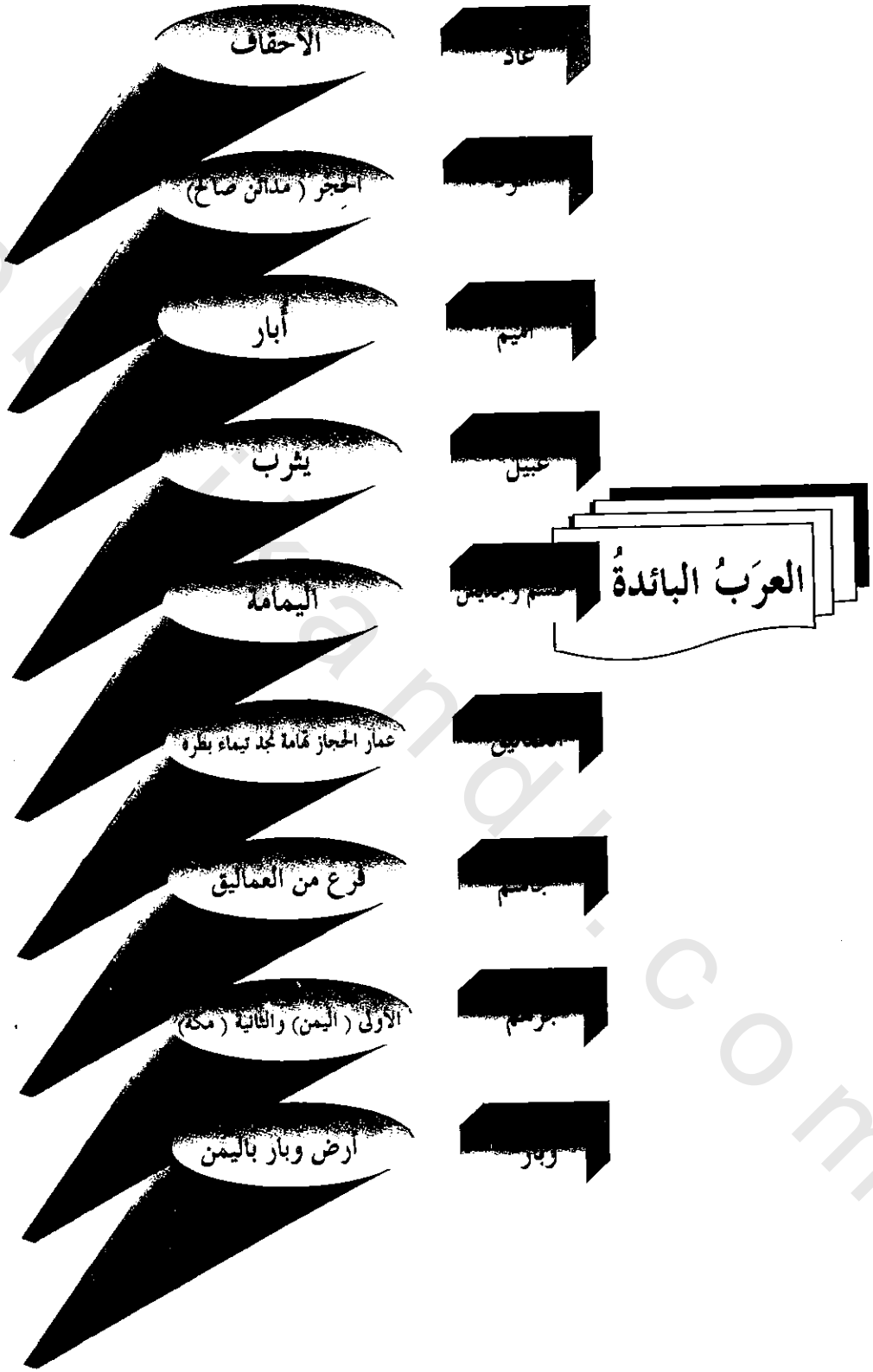
العرَبُ البائدةُ
عاد
الأحقاف
ثمود
الحِجر (مدائن صالح)
العِيم
أبار
حَبيل
يثرب
جرهم وجديس
اليمامة
العماليق
عمار الحجاز قمامة لجد تيماء بطرة
طسم
فرع من العماليق
جرهم
الأولى (اليمن) والثانية (مكة)
وبار
أرض وبار باليمن

obeikandl.com

وينبغي ألا يُفهمَ مما عرَضناهُ من لهجاتِ العربِ أنها تمثّلُ ما يصطلِحُ عليه الباحثون بأنه العربيةُ البائدة ، لأن هذه العربيةَ التي بادَت على الألسنةِ ، ولم تبدْ على الأحجارِ والصخورِ ، هى ذاتها المدعُوّةُ بعربيةِ النقوش التي كانت تنتظِمُ عدّةَ لهجاتٍ استخدمَها الأوّلونَ فى الشمالِ على مقرُبةٍ من الحدودِ الآراميةِ وداخلَ هذه الحدودِ فى واحتىْ تَيْماء والحِجْر (مدائن صالح) ومِنطَقةِ العُلا فى شمالِ الحجاز .

ولا ينبغي أن يأخذَنا الظنُّ إلى أن تلكَ العربيةَ هى الأصلُ الحقيقيُّ القديمُ للعربيةِ الباقية، لأن النقوشَ التي وقَعَت لنا منها فى المساحةِ الواسعةِ الممتدّة من دِمَشْقَ إلى العُلا تُثبتُ أن الناطقينَ بها كانوا بمعزلٍ عن عربِ نجدٍ و الحجاز ، و أنهم فقدوا الكثيرَ من مقوّماتهم العربية ، وصَبَغَهُمُ الآراميّونَ والنَبَطِيّونَ بصِبغَتِهم ، حتى أنهم ليؤرّخونَ نقوشَهم بحربِ النَبَطِ و تاريخِ بُصْرَى وحربِ الفُرسِ والروم[1] .

ولكنّ الرّافِعِيَّ فى "تاريخِ آدابِ العرب" يُحصِي العربَ البائدةَ فى عدةِ قبائلَ أوْسَعَ انتشاراً فى الرُّقعةِ الجغرافيةِ مما تقدَّم ، و هى : عاد ، و مسكنُهم الأحقاف ؛ و ثمود فى الحِجْر (مدائن صالح) ؛ و أُميْم فى باديةِ أُبار بين عُمان و الأحقاف ؛ و عبيل فى يثرِب؛ وطَسْم وجَديس فى اليمامة ؛ والعمالقةُ ، و هم قبائلُ عدّةٌ مساكنُهم عمار والحجاز وتهامة ونجد وتيْماء وفِلَسطين و بطره التي سمّاها اليونانُ بالعربيةِ الصّخريّة (وهي غيرُ البتراءِ المذكورةِ فى سيرةِ ابنِ هشام) ؛ وجاسم و هى فرعٌ من العماليق ؛ و جُرْهُمُ الأولى ، ومسكنُهم اليمن ، ومن بقايا جُرْهُمَ الثانيةِ الذين هاجروا إلى مكّةَ و تزوّجَ منهم إسماعيلُ عليه السلامُ ثم أخذوا فى الحَرَمِ فنَزَلَ بهمُ العذابُ ؛ ووبار ، و مسكنُهم أرضُ وبار باليمن.[2] والعربُ عندَهُ بائدةٌ ، وعاربةٌ ، ومُستعربةٌ ؛ ويُراد بالبائدةِ الهالكةُ ، و بالعاربةِ عربُ اليمنِ من وَلَدِ قحطانَ ، وبالمستعربةِ أولادُ إسماعيلَ عليه السلام ، لأنه كان عِبرانياً

---

[1] د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة (السابق) ص ٩٨ – ٩٩.

[2] مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر ، الجزء الأول ص ٣٩ – ٤٠.

فاستعرَبَ بعدَ أن اتصلَ بجُرهُمَ الثانيةِ من وَلَدِ قحطانَ وأصهَرَ اليهم. وقد يُطلَق على العاربةِ : القحطانية ، و السبئية ، و الحميرية ، و الكهلانية ، و اليمنية ، و الكلبية؛ و على المستعربةِ : الإسماعيلية ، والعدنانية ، والمَعَدِّية ، والمُضَرِيّة ، والقَيْسِيّة.

ويسمّى البعضُ البائدةَ بالعاربةِ ، والقحطانيةَ بالمتعرّبة ، والإسماعيليةَ بالمستعربة ؛ والبعضُ يجعلُ المتعرّبةَ والمستعربةَ مترادفتين ، ويرادُ بهم الإسماعيلية. وقد وَرَدَ هذا الخلطُ من تطبيقِ أقوالِ علماءِ اللغةِ على التاريخِ ، إذ يريدونَ بالعاربةِ و العَرْباءِ الخُلَّصَ ، وبالمتعرّبةِ والمستعربةِ الدُّخَلاء[1]. ويُقسّمُ الرافعيُّ تهذيبَ العربيةِ و تطوُّرَها إلى ثلاثةِ أدوارٍ ، أولها في عصرِ إسماعيلَ عليه السلامُ ، و ثانيها عندَ انشعابِ القبائلِ من وَلَدِ إسماعيلَ مما أتاحَ لكلِّ قومٍ منتدَحاً للابتكارِ و الوضعِ في اللغة ، وثالثُها دورُ قريشٍ ، حيثُ يَنسبهُ إليها منفردةً دون سائرِ العرب.

ويقولُ الرافعيُّ في الدورِ الأولِ من تهذيبِ العربية : "و العربُ ، أهلُ هذه اللغةِ ، قومٌ ملكوا الأرضَ و لم تملِكْهم ، فلم يؤثّرْ عنهم شيٌ في جاهليتِهم الأولى من أنواعِ الدّلالةِ الثابتةِ : كالكتابةِ والآثارِ ونحوِها، ولا دخلوا في تأريخِ أمّةٍ من أممِ الحضارةِ فيكونَ لهم نوعٌ من تلك الدّلالة ؛وعلى ذلك يتعينُ أن تكونَ لغتُهم أيضاً قد مَلَكَت التاريخَ و لم يملِكْها ،و هي لا بُدَّ أن تكونَ قد تقلّبت معهم على وُجوهٍ من الإصلاحِ وجَرَت على مَناحٍ من التهذيب ؛ و تاريخُ ذلكَ بالطبعِ غيرُ محقّقٍ بالنّصِّ ... وإن كانت هذه الجهةُ منها قد حَفِظَت بعضَ الآثارِ التي يترسَّمُها الباحثُ ويراها كأنما تُرِكت بالأمس ؛ وذلك لقربِ عهدِ الرُّواةِ في صَدْرِ الإسلامِ بقبائلِ العربِ الذينَ خَلُصَت من لهجاتهم هذه اللغةُ المُضَرِيّةُ. وقبلَ أن نأخذَ إلى القصدِ من هذا التاريخِ ، نأتي على شيءٍ من أقوالِ العلماءِ العربِ في أمرِ اللغةِ و تهذيبِها ؛ فهم مجمعونَ على أن إسماعيلَ عليه السلامُ أصلُ العربيةِ المُضَرِيّة

[1] السابق.

... و هذه هي التي نزَلَ بها القرآنُ ، و قد انفَتَقَ بها لسانُ إسماعيلَ ... و الذي عندَنا، أن المرادَ بانطلاقِ لسانِ إسماعيلَ بالعربية ، وضعُ أصلِها بما أضافَ من لغة جُرْهُمَ إلى لغةِ قومِه ؛ و بذلك انطَلَقَ لسانُه من الكلامِ في مذهبٍ أوسعَ منحىً و أوضحَ دلالةً ؛ وهذا معنى ما وَرَدَ في الحديثِ من أنه أولُ من فُتِقَ لسانُه "بالعربيةِ المبينة" وذلك أمرٌ خاصٌ بالكمالِ الفطريِّ لا يحتاجُ إلى تمرينٍ ولا تلقينٍ و لا تَدَريجٍ ولا تخريجٍ ؛ هذا إذا صحَّ الحديثُ ، وإلاّ فإن إسماعيلَ عَلَمٌ من أعلامِ التاريخِ الصحيحِ ، و هو الرأس الذي أُودِعَ المعقولَ من تأريخِ العدنانيةِ أصلِ هذه اللغة ، ... ؛ فلا جَرَمَ كانَ في الاعتبارِ أصلَ اللغة، وكانت كأنها منسوبةٌ إليه نسبةً تأريخيةً ، لأن ما وراءهُ كأنه منقطعٌ عن التاريخِ ؛ إذ هو تيهٌ من الظنِّ لا يُعرفُ في أيِّ مَوْضِعٍ منه توجدُ الحَلْقَةُ المفصومةُ من سِلسلةِ التاريخِ العربيِّ. وعلى هذا يصِحُّ لنا أن نقولَ : إن أوّلَ تهذيبٍ حقيقيٍّ في العربية ، يرجعُ إلى عهدِ إسماعيلَ ؛ أما تنقيحُ اللغةِ قبلَ ذلكَ فإنما هو درجاتٌ من النُّشوءِ الزمنيِّ لا يمكنُ بوجهٍ من الوجوهِ أن يُحَدَّدَ أو يُنسَبَ إلى فَرْدٍ مُعَيَّنٍ ، كنسبَتِهم بعضَهُ لِيَعْرُبَ ابنِ قحطانَ مثلاً ، إلا إذا صحَّ التسلسلُ التاريخيُّ حتى ينتهيَ إليه ، وذلك غيرُ صحيحٍ. والاستدلالُ على نسبةِ المنطقِ العربيِّ إلى يَعْرُبَ إنما هو استدلالٌ لُغَوِيٌّ فقط تنبَّهُ إليه المجانسةُ اللفظية ؛ إلا فإن من المؤرّخين من يقولُ إنّ يَعرُبَ هذا هو المعروفُ في التوراةِ باسمِ "يارح بن يقطان" و إذا وَجَدْنا دلالة الإعراب ، أى الإبانةِ في يعرب ، فلا نجدُها في يارِح ، لا بالنص ولا بالتأوُّل"[1].

والمتأمِّلُ لهذا النصِّ يخلُصُ بغيرِ عَناءٍ إلى أن الدليلَ التاريخيَّ على أن إسماعيلَ عليه السلامُ أبو العربيةِ المُضَرِيّةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ إنما هو دليلٌ سلبيٌّ محض ، لأنه مؤسَّسٌ على شبهِ انقطاعٍ تاريخيٍّ فيما يسبقُ عصرَ إسماعيلَ ، ومن حيثُ قادَ هذا المنهجُ الاستقصائيُّ الباحثينَ إلى استبعادِ من هو أسبقُ من إسماعيلَ إلى انفتاقِ لسانه بالعربيةِ المبينة ، لمجرَّدِ غيابِ الآثارِ والقرائنِ والبيِّناتِ التي تَدحَضُ هذا الاعتقاد ، فانهم قد أثبتوا لإسماعيلَ السّبقَ على

---

[1] السابق ، الجزء الأول ، ص ٧٣ – ٧٥ .

سائرِ العربِ في ذلك. وكانت كأنها منسوبةٌ إليه نسبةً تأريخيةً لأن ما وراءه كان كأنه منقطعٌ عن التاريخ ".

والدليلُ الآخرُ الذي يسوقُه الرافعيُّ مُستمَدٌّ من الحديثِ الشريفِ القائلِ بأن إسماعيلَ عليه السلامُ أولُ من فُتِقَ لسانُه بالعربية المبينة. والرافعيُّ نفسُهُ غيرُ مطمئنٍّ إلى صحَّةِ إسنادِ هذا الحديثِ الذي رواهُ السّيوطيُّ في الجامعِ الصغير (٢٨٣٧) وعزاهُ للشيرازيّ في الألقابِ عن عليٍّ ، وقال: حسنٌ. و مع ذلكَ فإن الرافعيَّ يبدو في صورةِ المضطرِّ إلى التسليمِ بصحةِ الدليلِ التاريخي ، على ما يعتَورُهُ من وَهَنٍ و هَافُتٍ في المنهَجِ ،ثم إنه مضطرٌّ أيضاً إلى التسليمِ بصحةِ الدليلِ الدينيِّ (الحديثِ النبويِّ) رغمَ قولِه فيه نصّاً "هذا إذا صحّ الحديث" . و هو يحاول تأويلَه على نحوٍ يقبَلُهُ عقلُه ، و يربَأُ به عن أن يُتّهَمَ بالشكِّ في متنٍ من مُتونِ السُّنةِ النبوية ، فيقودُه تأويلُ فكرةِ " فَتْقِ اللسان بالعربيةِ المبينةِ" إلى القولِ بأن " ذلكَ أمرٌ خاصٌّ بالكمالِ الفطريّ ، لا يحتاجُ إلى تمرينٍ ولا تلقينٍ و لا تدريجٍ ولا تخريج" .يريدُ أن ذلكِ الانفِتاقَ اللسانيَّ كان إلهاماً إلهياً مباشراً دون توسُّطِ واسطةٍ ولا توسُّلِ وسيلةٍ ، وأن هذا الامتلاكَ لناصيةِ اللسانِ العربيِّ المبينِ قد وقَعَ بغتةً في قلبِ رجلٍ خَلَتْ وِفاضُهُ من كلِّ علمٍ قَبْلِيٍّ بهذه البلاغة ، فإذا به بين غَمْضةِ عينٍ و انتباهتِها أفصحُ العرب ، وصاحبُ القِدْحِ المُعَلّى من بينِهم في هذا المضمار.

ولكنّ الرافعيَّ لم يكنْ مقنعاً إلا لقلبه ، لا لعقلِه ولا لعقلِ قارئه. والمحقّقُ تاريخياً أن العربيةَ لم تكنْ لسانَ إسماعيلَ، ولا لسانَ أبيه إبراهيمَ عليهما السلامُ ، و أنها لم تجرِ على لسانِ إسماعيلَ إلا بعدَ أن أسكنَهُ أبوه وأمُّهُ الواديَ غيرَ ذي الزَّرعِ الذي جاءَ في الذِّكرِ الحكيم .وهناك ، وبعدَ أن شبَّ إسماعيلُ عن الطوق ، واجتاز الصِّبا وبَلَغَ الغُلْواءَ[1] تزوّجَ من جُرْهُم ، ومنهم تعلّمَ العربية[2].

---

[1] مبلغ الرجال

[2] د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة (السابق)

ويستشهدُ الرافعيُّ بابن سيدَهْ صاحبِ المخصَّصِ إذ يقولُ :"و على هذا يكونُ توقيفُ إسماعيلَ على العربيةِ المحضةِ يحتملُ أمريْن : إما أن يكونَ اصطلاحاً بينَهُ وبينَ جرهُم النازلين عليه بمكةَ ، و إما أن يكونَ توفيقاً من الله تعالى و هو الصّواب".

وقد رأيتَ معنا تَوَخّيَ الرافعيِّ منهجاً علمياً صِرْفاً في رفضِه الاستدلالَ اللغويَّ على أن يَعْرُبَ بنَ قحطانَ أولُ من نقّحَ العربيةَ و هذّبها قبلَ إسماعيل ؛ فأيُّ سندٍ علميٍّ تُرانا واجديه في إثباته التنقيحَ و التهذيبَ الأوّلَيْنِ لإسماعيلَ على أساسٍ تاريخيٍّ واهٍ لا قيامَ له إلا على رِجْلَيْنِ مُتَراخِيَتَيْنِ من الاستقصاءِ السّلبيِّ ،وعلى أساس دينيٍّ قائمٍ على متنٍ من الحديثِ الشريفِ كانَ مَوْضِعَ شكِّ الرافعيِّ ذاتِه ؟ بيد أن الرؤيةَ العلميةَ تتضحُ في قولِه : "و الذي عندَنا أن المرادَ بانطلاقِ لسانِ إسماعيلَ بالعربيةِ وَضْعُ أصلِها بما أضافَ من لغةِ جُرْهُمَ إلى لغةِ قومِه". ثم قوله : "و لو صَحَّ هذا وأمثالُه لكانَ دليلاً على أن لغةَ القرآنِ متوارثةٌ في قريشٍ من لدُنِ إسماعيلَ عليه السلامُ ؛ وتكونُ قد بَقِيَتْ زُهاءَ خمسةٍ و عشرينَ قرناً وهي جامدةٌ على واحدة ؛ و هذا الرأيُ مدفوعٌ في العقولِ ، و إنما سَوَّغَهُ عندَهم ما يريدونَهُ من إعطاءِ هذه اللغةِ صفةً إلهيّةً لمنزِلَةِ القرآنِ منها ، وما كانَ إلهيّاً فهو كذلكَ إلى الأبد ؛ غيرَ أن التاريخَ لا دينَ لهُ في نَسَقِه الزمنيِّ ، وإنما التَّحَوُّلُ والتنوّع من سُنَنِ الله : (ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا)".

ثم ينتقلُ الرافعيُّ إلى الدورِ الثاني من أدوارِ تهذيبِ العربية ، فيعزوهُ إلى خروجِ أولادِ إسماعيلَ ، وانشعابِ القبائلِ منهم "بعد أن كانت لغتُهم قد اشتدَّت و قطَعَت مسافةً بعيدةً من الفرقِ بينها و بين أصلِها الذي اشتُقّت منه ، فابتدأت تأخذُ صورةً متميّزةً من الاستقلال". و يستطرد قائلاً : "فلما تفرّقَت القبائلُ أخَذَت اللهجاتُ تتنوعُ ، والعربُ إنما تهجمُ بهم طبائعُهم على حقائقِ الكلام ، وبذلكَ لا بُدَّ أن تكونَ قد تعدَّدَت طُرُقُ الوضعِ في اللغةِ بطولِ المدةِ واتساعِ الاستعمالِ وتقليبِ الكلامِ على وجوهِهِ المستحدثةِ ؛ ومن ثمَّ نَشأت اللغاتُ الكثيرةُ التي تشيرُ إلى تاريخِ هذا التنوُّعِ لأنها مادّتُه الحقيقيةُ...

وكانت العربُ يأخذُ بعضُها عن بعضٍ بالمخالطةِ والمجاورةِ ، فربما انتقلَ لسانُ العربيِّ عن لغتِه إلى لغةِ قبيلةٍ أخرى ، وربما تداخلَت اللغاتُ فنشأت من اللغتين لغةٌ ثالثةٌ ، على أنهم في ذلكَ لا يخرجُ كلٌّ منهم عن قياسِ نفسه ووزْنِ طَبْعِه ، حتى كأنَّ ألسنتَهم تختلفُ مثلَ الاختلافِ ما بين أجسامِهم و أذواقِهم ، فكلٌّ منهم يُفَصِّلُ من الكلامِ و يتصرَّفُ في وجوهِ القولِ على حَسْبِ هذا القياسِ الذي خُلِقَ فيه و رُكِّبَ في طبعِه و كان مظهرَ قريحتِه"[1]

أما الدّورُ الثالثُ من تهذيبِ العربيةِ فيذهبُ فيه الرافعيُّ مذهبَ كَثْرَةِ الباحثينَ إلى أن قريشاً انتقَت من لغاتِ العربِ خِيارَها، و قد أُتيحَ لها ذلكَ لأنَّ الكعبةَ كانت وِجهةَ العربِ قاطبةً ، وكان لكلِّ قبيلةٍ صَنَمٌ من بينِ ثلاثمائةٍ وستينَ صنماً تحُجُّ إليه و تُقدِّمُ بينَ يَدَيْهِ القرابين . وكانت تلكَ القبائلُ متباينةَ اللّهجاتِ ، فكانت قريشٌ تجتبي أحسنَ ما فيها "فيُديرون به ألسنتَهم ويجرون على قياسِه ، ولو كانوا بادينَ كسائرِ القبائلِ ما فعلوه ، ولكنَّ نَوْعَ الحضارةِ الذي اكتسبوهُ من تاريخِهم ألانَ من طباعِهم و كَسرَ من صلابتِهم... فلمّا اجتمعَ لهم هذا الأمرُ ارتفعَت لغتُهم عن كثيرٍ من مُستَبشَعِ اللُّغاتِ ومُستقبَحِها ، و بذلك مَرَنوا على الانتقادِ حتى رَقّت أذواقُهم ، وسَمَتْ طبائعُهم ، و قَوِيَت سلائقُهم ؛ وحتى صاروا في آخرِ أمرِهم أجْوَدَ العربِ انتقاءً للأفصحِ من الألفاظِ ، وأسهلِها على اللسانِ عندَ النُّطق ، و أحسنِها مسموعاً ، و أبْيَنِها إبانةً عما في النفس؛وكانت لهم رحلتانِ في التِّجارةِ كلَّ عامٍ : رحلةُ الشتاءِ إلى اليمنِ ، و رحلةُ الصَّيْفِ إلى بُصْرَى في حوران... وكذلكَ كانوا يَضربونَ في الأرضِ إلى فارسَ و إلى الحبشةِ ، فسَمِعوا مناطقَ الناسِ و تَدبَّروا وجوهَ العذوبةِ في أعذبِها ، وتناولوا كثيراً من ألفاظِ تلكَ الأُمَمِ ، فداخلَت كلامَهم وأعربوها من الروميّةِ و الفارسيّةِ و العبرانيّةِ و الحبشيّةِ والحِمْيَريّة؛ وعلى ذلكَ صاروا بطبيعةِ أرضِهم في وَسَطِ العربِ كأنهم مجمَعٌ لُغَوِيٌّ يَحوطُ اللغةَ و يقومُ عليها و يشُدُّ أزرَها و يرفعُ من شأنِها و يزيدُ في ثروتِها ، وبالجملةِ يحقِّقُ فيها

[1] الرافعي : تاريخ آدابِ العرب ، ص ٧٤

كلَّ معاني الحياةِ اللغوية" . ثم يُبدي الرافعيُّ شديدَ دهشتِه من ألاَّ يَستَغرِقَ هذا الدورُ الذي اضطلَعت به قريشٌ أكثرَ من مائةِ سنةٍ قبلَ الهِجرةِ إلى مائةٍ وخمسينَ على الأكثر : "فلا بُدَّ من التسليمِ بأنها حادثةٌ كونيّةٌ من خَوارِقِ النظامِ الطبيعيِّ ، ظهَرَت نتيجتُها بعدَ ذلكَ في نزولِ القرآنِ الكريمِ بلغةِ قريش"[1] .

وبذلكَ نخلُص من العرضِ التاريخيِّ الذي يقدِّمُه لنا الرافعيُّ إلى أن ما سبَقَ عهدَ إسماعيلَ من قصةِ العربيةِ هو مما لا سبيلَ إلى اقتفاءِ أثرِه والتماسِه في مظانِّهِ لأن هذه المظانَّ تكادُ أن تكونَ بلا وجودٍ تاريخيٍّ يطمئنُّ إليه الباحثُ ؛ أما الشكلُ الأولُ الذي اتخذَتْهُ العربيةُ فيُعزَى إلى إسماعيلَ والى من أصْهَرَ إليهم من جُرْهُمَ فزاوَجَ بين لسانِه ولسانِهم كما تقدَّم ، على ما في الدليلَيْنِ التاريخيِّ و الدينيِّ على ذلك من مثالبَ أشَرْنا إليها في مَوْضعِها . وكان التهذيبُ الثاني للعربيةِ من تفرُّقِ الألسنةِ إلى لهجاتٍ تعبِّرُ عن الحسِّ اللُّغَويِّ لكلِّ فريقٍ من وَلَدِ إسماعيل ، وما أتاحَهُ هذا التعدُّدُ من تلاقُحِ الألسنةِ و توالُدِ الجديدِ من مُفرداتٍ . ثمَّ كانَ دَوْرُ قريشٍ في لَمِّ الشَّتاتِ ، ودِقَّةِ الانتقاءِ والتنقيحِ ثالثَ الأدوارِ قبلَ نزولِ القُرآن .

[1] السابق ، الجزء الأول ص ٧٩ .

obeikandl.com

غموض وشبه
إنقطاع تاريخى